بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 24 فبراير 2017

النبـوّة

في النصوص المقدّسة

حمّادي المسعودي

باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مؤسّسة النبوّة في الأديان التوحيديّة الثلاثة؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، بالاعتماد على نصوصها المقدّسة: **العهد القديم**، و**العهد الجديد**، و**القرآن** أساسًا، ويطرح إشكالات مهمّة تتعلّق بالنبوّة في هذه النصوص من أبرزها: دورُ الآلهة والأنبياء في إنشاء الكلام المقدّس (الوحي)، وعلّةُ اختلاف هذا الكلام من دين إلى دين، ومن نبيّ إلى نبيّ، والخلفياتُ الفكرية الكامنة وراء التمثّلات التي صاغت صورًا للآلهة وللأنبياء بالشكل الذي نجده في النصوص المقدّسة.

يدور هذا البحث على محاور رئيسة هي:

1- جدلية النبيّ/الإله: الوحي/الإلهام.

2- تصوّر النبيّ في العهد القديم.

3- أثر فعل تدوين الوحي/الإلهام في تصوّر النبيّ والإله.

4- هل يسوع/عيسى مجرّد نبيّ؟

5- الوحي/النبوّة/النبيّ في الإسلام.

المقدّمة:

النبوّة ظاهرة دينية تمثّل قطبًا في جميع الديانات الكتابية، فلا دين بلا نبيّ، ولا نبيّ بلا دين، وإذا ما كان الدين يمثّل الرسالة الإلهية الموجّهة إلى قوم معيّنين، أو إلى البشرية كافّة؛ فإنّ النبيّ يمثّل مبلّغ هذه الرسالة، أو هو قناة التواصل بين الذات المتعالية والقوم أو البشرية، عبر خطاب دينيّ متعالٍ، ضمّه نصّ مقدّس ومتعالٍ، حسب الخطاب التيولوجي، وحسب القراءات الإيمانية.

ولمّا كانت هذه النصوص المقدّسة على هذا المقدار من التعالي، والإطلاق، والغموض، والرمز، كان لا بدّ من تفكيكها، والبحث في إشكالياتها المتعدّدة، وحلّ ما لبس فيها، وأوّل من قام بهذه الوظيفة التفسيرية لهذه النصوص المنفتحة على المطلق من المعاني، هم الأنبياء؛ فكلّ نبيّ، في جميع الديانات، كان مبلّغ الرسالة ومفسّرها للقوم الذين بعث إليهم. يعرّف سبينوزا النبوّة والنبيّ؛ فيشير إلى هذا الدور التفسيريّ للنبيّ أثناء أداء رسالته، يقول: "النبوّة أو الوحي: هما المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء ما، والنبيّ: هو مفسّر ما يوحي الله به لأمثاله من الناس، الذين لا يقدرون على الحصول على معرفة يقينية به، ولا يملكون إدراكه إلّا بالإيمان وحده. ويسمّي العبرانيون النبيّ "نبيًا"؛ أي خطيبًا أو مفسّرًا، ويستعمل في الكتاب (الكتاب المقدس) بمعنى؛ مفسّر الله، كما هو واضح في [الإصحاح 7 الآية1من سفر الخروج][1].

إنّ النبيّ ليس مجرّد حمّال رسالة؛ بل هو، علاوة على ذلك، يبلّغها إلى الناس ويفسّرها، ويسهر على تطبيقها، بحمل قومه على الانصياع لأوامرها، والانتهاء عن نواهيها. ويمكننا القول: إنّ معرفة أيّة ديانة، تتوقّف على معرفة نبيّها أو أنبيائها، وهنالك من يؤكّد: (أنه إذا أردنا فهم الديانة اليهودية، يتحتّم علينا فهم أنبيائها)[2].

إنّ الشاهد السابق، يؤكّد أهمية معرفة النبيّ، ودور ذلك في تعميق معرفة الديانة التي يحملها إلى الناس، ويجعل، علاوة على ذلك، دراسة مؤسسة النبوّة أمرًا ضروريًا؛ لأنّها تمثّل المسألة المركز أو المحور الرئيس في معالجة الإشكالية الدينية، ولعلّها من هذه الناحية تفوق في أهميتها مسألة معرفة الألوهية؛ فعن طريق النبيّ نتعرّف على الإله، لكنّنا لا نعرف النبيّ بالإله؛ لذلك كانت الآلهة منذ القديم، تتّخذ أنبياء لها لتكشف عن ذاتها بواسطتهم.

إنّ النصوص المقدّسة تتحدّث عن اختيار الإله لنبيّه أو لأنبيائه، لكنّنا قد نقلب الصورة، فنقول: إنّ النبيّ يختار إلهه، وقد نمعن في قلبها عندما نتساءل عن المختار أو المصطفى من يكون؛ هل الإله هو الذي اصطفى نبيّه أو العكس؟ أو هل هذا الاصطفاء لا يعزى إلى هذا ولا إلى ذاك؛ وإنّما إلى الإنسان الذي اختارهما معًا؟

---

1 سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي وتقديمه، القاهرة 1971، ص 122

2 Léo Braeck ,L’essence du Judaïsme, P.U.F,1993p71.

إنّ الجواب لا يهمّنا بقدر ما يعنينا الطرح، والسؤال الذي يحيلنا على تصوّرات مختلفة للإله نفسه، وللأنبياء حتّى، في إطار الديانة الواحدة، مثلما هو الشأن في **العهد القديم**؛ أي في الديانة اليهودية.

لكنّ هذا الاختلاف، لا يقف عند حدود الديانة الواحدة؛ لأنّه يطال عديدًا من الأديان في كيفية تفاعلها من ناحية، وفي كيفية تصوّرها للمسألة عينها من ناحية أخرى، فممّا لا ريب فيه، أنّ الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية، تلتقي جميعها في كونها أديانًا توحيدية، تعتمد النبوّة والأنبياء في التواصل بين الذات المتعالية والناس أو البشرية، وإن كنّا لا نهمل بعض الفوارق بينها في تصوّرها للوحي أو النبوّة أو الألوهية.

إنّ جميع هذه الديانات تؤمن بالإله الواحد، الذي يتكشّف للبشر عن طريق الوحي بواسطة نبيّ أو أكثر، يصطفيه ليبلّغ القوم أو الناس عامّة. وعلينا أن نبحث في مسألتي الوحي وماهية النبيّ، أو الصور والأشكال التي تتبدّى فيها هاتان الإشكاليتان، لندرك الثوابت والمتحوّلات فيهما، وما يمكن أن تحيل عليه من نقاط تواصل أو تضادّ بين هذه الديانات الكتابية التوحيدية، فهل للوحي في هذه الديانات المفهوم نفسه؟ وهل صورة النبيّ لها من الثبات ما يجعلها موحّدة في هذه الأديان؟ وهل موسى في الكتاب المقدّس هو نفسه موسى القرآن؟ وهل مسيح **العهد الجديد** هو نفسه مسيح القرآن؟ وهل للوحي الدّلالة نفسها في الديانات الكتابية الثلاث؟

جدلية: النبيّ/الإله، الوحي/الإلهام:

إنّ دراسة هذه الجدلية تقتضي منّا، قبل كلّ شيء، البحث في ماهية الوحي في الديانات الكتابية الثلاث، وما يمكن أن ينشأ عن هذه المسألة من إشكاليات، تعمّق الهوّة، أو هي تليّنها، في أوساط معتنقي اليهودية والمسيحية والإسلام. فما المقصود بالوحي؟ وهل هذا اللفظ له الدلالة نفسها في الأديان التوحيدية الثلاثة؟ وما الفرق بين الوحي والإلهام؟

سبق أن ذكرنا تعريف سبينوزا للنبوّة والوحي، وهو قوله: "النبوّة أو الوحي: هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء مّا"[3]. فالوحي، إذن؛ تواصل بين الله والناس عن طريق النبيّ أو الأنبياء. والنبيّ: هو المبلّغ لهذا الوحي، أو هو القناة الواصلة بين المرسل والمرسل إليهم (الناس)، وهو، علاوة على ذلك، المفسّر والمعبّر عن هذا الوحي، ويمكن أن نرسم هذه العلاقة بين أطراف الوحي على النحو الآتي:

الله

↓

النبيّ ← القوم/الناس

3 رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 123

ويمكن أن نلفي هذا الرسم على نحو مخالف في المسيحية والإسلام؛ إذ تغيب بعض الأطراف، وتضاف أطراف أخرى، وفق طبيعة إحدى هاتين الديانتين.

وقد كانت كيفيات الوحي أو طرقه مجالًا للبحث والدراسة، قديمًا وحديثًا، وفي جميع الثقافات تقريبًا، وخاصّة في تلك التي تنتمي إلى الديانات الكتابية؛ فسبينوزا يذكر أنّ للوحي طريقتين أو كيفيتين؛ أولاهما: أن يوحى إلى النبيّ بالكلام. والثانية: أن يتمّ الوحي إلى الأنبياء عن طريق المظاهر الحسية. ويذكر هذا المفكّر أنّ الطريقتين قد تكونان حقيقيتين، وقد تكونان متخيّلتين، يقول: "في بعض الأحيان، يكون الكلام والمظهر الحسيّ حادثًا بالفعل، لم يتخيّله النبيّ لحظة سماعه أو رؤيته، وأحيانًا أخرى، يكون مجرّد خيالات؛ حيث تكون مخيّلة النبيّ مهيّأة، حتّى وهو في اليقظة، على نحو يجعله يتخيّل أنّه يسمع صوتًا، أو يرى شيئًا بوضوح"[4]. والمثال الدالّ على الطريقة الأولى (الوحي بالكلام): يتجلّى من خلال الشرائع التي أوحى الله بها إلى موسى. ويؤكّد سبينوزا أنّ التواصل بين الله وموسى بالكلام عن طريق صوت حقيقيّ، هو المثال الوحيد في الكتاب المقدّس، وباستثناء هذا الصوت ينفي، هذا المفكّر نفسه، أن يكون نبيّ من أنبياء **العهد القديم**، قد استمع إلى صوت حقيقيّ صادر عن الله؛ لذلك يكون ما يذكر في الكتاب المقدس حول سماع الأنبياء لأصوات الإله، هو من باب الخيال أو التخيّل.

أمّا الوحي عن طريق المظاهر الحسية أو الصور الحسية؛ فيتجلّى عندما يكشف الله للنبيّ عن أمر ما بواسطة ملاك، مثلما كشف عن غضبه على داود عن طريق ملاك يمسك سيفًا بيده[5]، وكشف ليشوع عن دعمه له أثناء الحرب بواسطة ملاك يشهر سيفًا على رأس الجيش، وقد نطق الملاك ببعض الكلمات ليؤكّد الخبر ليشوع[6]. ويستخلص سبينوزا من طريقتي الوحي السابقتين: "نحن على يقين، إذن، أنّ أيّ نبيّ، باستثناء موسى، لم يسمع صوتًا حقيقيًا، وهذا ما يؤكّده أيضًا **سفر التثنية** (34: 10)، ويقول بمزيد من الوضوح: "ولم يظهر بعد نبيّ في بني إسرائيل مثل موسى، الذي خاطبه الربّ وجهًا لوجه". والمقصود من ذلك، أنّه سمع صوت الله فقط؛ لأنّ موسى ذاته لم يرَ وجه الله مطلقًا"[7].

إنّ ما يذكره الأنبياء في **الكتاب المقدس** من رؤية للإله في صور حسّية، لا يعدو أن يكون من باب الخيال أو التخيّل، فلا موسى ولا غيره من الأنبياء، قد رأى الله مجسّدًا، وما يذكر في النصوص المقدسة من تجلّيات مجسّدة للذات الإلهية، هو من إنشاء خيال الأنبياء؛ لذلك جاءت تلك التجلّيات أو تلك التصوّرات، تختلف من نبيّ إلى آخر، حسب نوع الخيال الذي يتمتّع به كلّ نبي؛ إذ عمد كلّ نبيّ إلى تصوّر إلهه حسب إمكانات التخيّل لديه.

4 نفسه، ص 126

5 انظر: أخبار الأيام الأول 16: 21

6 انظر: يشوع 5: من 13 إلى 15

7 رسالة في اللاهوت والسياسة، ص ص 132- 133

وقد أكّد سبينوزا: أنّ للأنبياء قوّة تخيّلية تفوق كثيرًا ملكة العقل فيهم، ولا غرو، فهم في حاجة إلى الخيال أكثر من حاجتهم إلى العقل، وهم يتمتّعون بخيال خصب أكثر من تحلّيهم بعقل كامل؛ لذلك، تكون النبوّة، بالنسبة إلى سبينوزا، جزءًا من الخيال، فكان يرى أنّ من كان ذا عقل راجح لم ينعم ببهبة النبوّة، بسبب نقصان الخيال أو غيابه لديه، ذلك أنّه "كلّما زاد الخيال، قلّ الاستعداد لمعرفة الأشياء بالذهن الخالص، وعلى العكس من ذلك، نجد أنّ من يتفوّقون في الذهن ويحرصون على تنميته، تكون قدرتهم على التخيّل أكثر اعتدالًا، وأقلّ انطلاقًا، وكأنّها حبيسة حتّى لا تختلط بالذهن، وعلى ذلك، فإنّ في البحث عن الحكمة، ومعرفة الأشياء الطبيعية والروحية في أسفار الأنبياء، ابتعادًا عن جادّة الصواب"[8].

إنّ الخيال، إذن، هو مصدر كلّ وحي، وليست الذات الإلهية هي التي توحي إلى الأنبياء؛ وإنّما ذات النبيّ هي التي تلهم، ولمّا كان الوحي إلهامًا اختلفت مادّته من نبيّ إلى آخر باختلاف المزاج، والثقافة، والبيئة لدى كلّ واحد من الأنبياء، وقد لوّن كلّ نبيّ الوحي بلونه الخاصّ، وأضفى عليه بعضًا من ذاته، فإذا كان النبيّ "ذو مزاج مرح، توحى إليه الحوادث التي تعطي الناس الفرح، مثل؛ الانتصارات، والسلام ...، وعلى العكس من ذلك، إذا كان النبيّ ذو مزاج حزين، توحى إليه الشرور؛ كالحرب، والعذاب"[9].

إنّ ما طرحه سبينوزا، شبيه بما يطرحه الباحثون المعاصرون حول مسألة الوحي، وقد تناول الأب روبار قسبار (Père Robert Caspar)، موضوع الوحي في **الكتاب المقدس** وفي **القرآن** في مداخلة بعنوان: (**الكلام الإلهي واللغة البشرية في المسيحية والإسلام**)، قدّمت في الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني، قال فيها: إنّ الله يخاطب الناس بلغة بشرية عن طريق الأنبياء، ويعتبر النبيّ حامل كلام الله إلى الناس، وهو إنسان عصره وثقافته؛ لذلك كان النبيّ يستعمل، في نقل الكلام الإلهي، لغة زمنه وثقافته، وليس له من معرفة سوى ما يوفّره له وسطه.

لكنّ النبيّ، حسب التصوّر الغربيّ، يدعمه أو ينيره في كلّ ما ينقله الروح القدس، مثلما يدعم مدوّن النصّ المقدس وينيره، لكي ينقل إلى الناس ما أراد الله تبليغه إليهم، فكلام الأنبياء والكتب المقدّسة التي تنقله، هو كلام بشريّ وكتابة بشرية بحقّ؛ لذلك تكون في متناول فهم معاصري النبيّ، لكن كلام النبيّ هذا يمثّل كذلك كلام الله، وهذا لا يعني أنّ الذات المتعالية هي الباثّ له أو مؤلّفه؛ وإنّما يعني أنّه هو ملهمه إلى النبيّ عن طريق الروح القدس، وأنّ النبيّ ينقل بأمانة إرادة الله.

إنّ هذا التصوّر للإلهام النبويّ ولكتابته، يمكّن من احترام دور العوامل البشرية في الوحي، هذه العوامل، هي: شخصية النبيّ، وتجربته الحياتية، ومصادر معرفته وثقافته، وخاصّة تعدد الأنبياء والكتابات المقدسة عبر التاريخ.

8 نفسه، ص 146

9 نفسه، ص ص 150- 151

إنّ الوحدة تكمن في مستوى الملهم أو مصدر الإلهام، الذي هو الروح القدس، والذي يضمن التواصل والانسجام بين الأنبياء الملهمين، رغم كثرتهم في الديانة اليهودية؛ فالوحي ظاهرة بشرية باعتبارها كلام النبيّ، وهي، كذلك، إلهية؛ أي كلام الله بفعل الروح القدس الملهم، فهي، إذن: ظاهرة إلهية بشرية في آن (théandrique):

الوحي=	إلهيّ	+	بشريّ
	↓		↓
	الروح القدس		النبيّ

لذلك لن تكون اللغة التي دوّنت بها الكتب المقدسة (العهد القديم + العهد الجديد)، لغة إلهية؛ وإنّما هي لغة بشرية محمّلة معاني إلهية، دوّنها قدّيسون وكتبة في الفترة الممتدّة ما بين القرن العاشر ق.م، والقرنين الأول والثاني الميلاديين بالنسبة إلى **العهد القديم**، وبعد موت المسيح وصعوده بالنسبة إلى **العهد الجديد**، الذي دوّنه رسل المسيح وتلاميذه، اعتمادًا على ذكرياتهم، وعلى ما عاشوه مع المسيح أثناء حياته الأرضية، وقد كان البعض يسمّي الأناجيل في القرن الثاني الميلادي، بـ **مذكّرات الرسل** (les mémoires des Apôtre). إنّ التقاليد المسيحية واعية تمام الوعي بأنّ الكتّاب القدّيسين: هم مؤلّفوا الأناجيل التي حرّروها بأسلوبهم، وأفكارهم، وبثقافة عصرهم وبيئتهم، بإلهام من الروح القدس. وقد ذكر الإنجيليّ لوقا في فاتحة إنجيله مصادر كتابه[10]، ونقل الأب (موريس بورمانس Maurice Bormans) عن نصوص المجمع الفاتيكاني الثاني، ما يلي: "إنّ الحقائق الإلهية التي تتضمّنها وتعلنها أسفار الكتاب المقدّس، قد سطّرت بإلهام الروح القدس؛ إنّما اختار لصياغة هذه الكتب المقدّسة أناسًا في كمال إمكاناتهم وقواهم، واستخدمهم، وبدفع منه فيهم وبواسطتهم، كي يدوّنوا، كمؤلفين حقيقيين، كلّ ما يريده وما يريده فقط [...]؛ فالرسل بعد صعود الرّبّ (يسوع)، نقلوا إلى مستمعيهم أقوال المسيح وأعماله، بذلك الفهم المتكامل الذي توصّلوا إليه عن طريق أحداث المسيح المجيدة التي درّبتهم، ونور روح الحقّ الذي علّمهم. أمّا المؤلفون القدّيسون فقد كتبوا الأناجيل الأربعة، واختاروا بعض ما كان ينقل بغزارة شفويًّا أو كتابة، وأوجزوا البعض الآخر أو فسّروه، مع مراعاة ظروف الكنائس، واحتفظوا، أخيرًا، بأسلوب الكرازة؛ حيث أنّهم أعطونا، دومًا، عن يسوع ما هو حقّ وصادق"[11].

لقد كان على علم اللاهوت في اليهودية والمسيحية، أن يوائم في مسألة الوحي بين الإلهي والبشري، ليحافظ على قداسة النصوص الدينية؛ لذلك، أدخل دور الروح القدس في تدوين تلك النصوص، لكنّه لمّا كان منظّروه (علماء اللاهوت) يؤمنون بأنّ الإله لا يمكنه أن يخاطب الناس بلغته هو؛ أي بلغة غير لغتهم،

10 انظر: لوقا 1: من 1 إلى 4

11 الأب موريس بورمانس، الوحي الإلهي ومشاكله في نظر الفكر المسيحي، ضمن كتاب الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني: معاني الوحي والتنزيل ومستوياتهما، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1980م، ص ص 334- 335

ذهبت تلك التيولوجيا إلى القول ببشرية لغة النصوص الدينية؛ ذلك أنّ الله إذا أراد أن يفهمه البشر، ينبغي أن يخاطبهم بلغتهم، وقد أكّدت التجربة الدينية ذلك، فكلّ نبيّ خاطب قومه بلغتهم؛ لذلك جاء أسلوب كلّ سفر من النصوص المقدّسة، له طابعه الخاصّ الذي به يتميّز من الأسفار الأخرى.

وقد كان سبينوزا واعيًا بهذا الأمر، عندما نفى عن الإله أن يكون له أسلوب خاصّ يتميّز به؛ لأنّ الأسلوب في النصوص المقدّسة، له أساليب تختلف من نبيّ إلى آخر، ومن عصر إلى عصر تال، وكلّ سفر من الكتب المقدّسة يتوقّف في بلاغته، وإيجازه، وإطنابه، وقوّته، وضعفه، ووضوحه، وغموضه، على ثقافة النبيّ وقدراته[12]، وكلّ سفر من تلك الأسفار قد أضفى عليه النبيّ من روحه، وعقله، وثقافة عصره، ما يمكن أن يتبيّنه القارئ بيسر. فالمتأمّل في **التوراة** أو شريعة موسى، يرى أنّ أسفارها ركّزت كثيرًا على توطيد العلاقة بين الإله الذي اختار شعبًا من بين الشعوب ليرعاه ويغدق عليه الهبات، مقابل عبادة بني إسرائيل له؛ لذلك كان لا بدّ من تركيز العلاقة بين الطرفين: الشعب ومعبوده، وإبرام العهود والمواثيق بينهما؛ الإله يخرج شعبه من مصر أرض العبودية، حسب العبارة التوراتية، فيتمّ عتقهم بعد أن كانوا مسخّرين معذّبين، ويعدهم بتقديم الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا لهم؛ أي أرض كنعان. وفي المقابل، يلتزم بنو إسرائيل بأداء الطقوس الدينية أمام هذا الإله، وبالإقلاع عن عبادة الآلهة الأخرى.

ولمّا كانت مشاغل موسى وبني إسرائيل من هذا النوع، كان لا بدّ لموسى من أن يبيّن للشعب ما ينبغي عليه القيام به؛ لذلك حفل سفرا الخروج والتثنية، خاصّة، بالعبادات والطقوس التي كان على بني إسرائيل أن يؤدّوها تجاه معبودهم، ولمّا كانت النبوّة تتأثّر بشخصية النبيّ والمدوّنين، وبثقافتهم وعصرهم؛ فإنّه يمكننا أن نشير إلى بعض سمات موسى الراسخة في أسفار **التوراة**، وخاصة تلك المرتبطة بخُلُقِه وطبعه، وقد أضفى موسى هذه الصفات على الإله، الذي كان يبيّن ملامحه لليهود/الشعب، يقول فرويد في كتابه **موسى والتوحيد**: "وأرجح الظّنّ أنّه كان من العسير عليهم أن يفصلوا صورة موسى عن صورة إلهه، ولقد كان هذا الحدس صحيحًا؛ لأنّ موسى نسب، في أرجح الظّنّ، بعضًا من سمات خلقه وطباعه إلى الربّ؛ كسرعة الغضب، وقسوة القلب، على سبيل المثال"[13].

لقد كان موسى كثير الحنوّ على شعب بني إسرائيل، وقاسي القلب على غيرهم؛ فالنصوص المقدسة، توراة وقرآن، تذكر بطشه بالمصريّ، ونصرته لبني ملّته قبل هربه إلى أرض مديان، وكذا كان شأن إله موسى؛ فقد كان كثير العطف والرأفة بشعبه، لكنّه كان شديد الغضب على الآخر.

إنّ موسى أضفى صفات الغضب وقسوة القلب من جهة، والعطف من جهة ثانية، على الإله الذي دعا بني إسرائيل إلى عبادته؛ لأنّ تلك الصفات كانت في الأصل صفات النبيّ نفسه، فعلاوة على صفتي الغضب

12 انظر سبينوزا، ص 155

13 سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط 4، 1986م، ص 152

والقسوة، كان موسى على نصيب وافر من الرأفة، عندما يتعلّق الأمر ببني إسرائيل؛ لذلك كان كثيرًا ما يراجع قرارات يهوه القاضية بإفناء الشعب، وإغداق الهبات على بني إسرائيل التي نسبها موسى إلى إلهه؛ اصطفاؤهم ليكونوا شعب الله المختار، وعدهم بالأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا، غضّ الطرف والتسامح أمام خطاياهم، ....إلخ، يجعلنا نفكّر مليًا في هذا الإله على مستوى علاقته بالنبيّ والشعب، ألا يمكن أن يدلّ هذا الأمر على الصعوبات التي وجدها موسى عندما أراد حمل بني إسرائيل على عبادة هذا الإله؟ ألا يمكن أن يدلّ هذا العسر وتلك الصعوبات على أنّ هذا الإله كان غريبًا عن الشعب الذي أراد موسى أن يوجّهه نحو عبادته بعد عودته إلى مصر من أرض المديانيين؟ ثمّ ألا تدلّ نهاية موسى الغامضة، كما جاءت في **التوراة**، والتي ذهب بعض الباحثين (فرويد مثلًا) إلى القول بإمكانية اغتيال اليهود له، على أنّ ما جاء به كان إكراهًا من الإكراهات التي فرضها على بني إسرائيل، لاسيما، إذا ما انتبهنا إلى عديد المواطن التوراتية التي تكشف عن تشكّيات بني إسرائيل من نبيّهم وأخيه هارون بعد الخروج من مصر؟

لقد أضفى الأنبياء، ثمّ المدوّنون من بعدهم، بعض الصفات البشرية على الإله؛ فأعطاه إبراهيم الرأفة والغفران، وقد تجلّى ذلك من خلال الجدل الذي دار بينهما حول فساد قوم سدوم وعمورة، وأعطاه يشوع صفاته الحربية عند غزوه لأرض الشام وتقتيله لسكّانها. لقد كان النبيّ يشوع يختلف، من حيث اهتماماته، عن موسى؛ فإذا كانت مهمّة الأول: توطيد العلاقة بين الإله والشعب، عن طريق نشر التعاليم وتبليغ الشريعة، وإخراج بني إسرائيل من مصر. كانت مهمة خلفه: تتركّز حول توطين الشعب في الأرض المقدّسة، وما يقتضي ذلك من شجاعة وتضحيات للاستيلاء على الأرض؛ لذلك جاء سفر يشوع حافلًا بوصف المعارك، ومتغنّيًا بانتصارات الشعب.

إنّ التصوّر الذي يقدّمه **العهد القديم** حول الألوهة: هو تصوّر يحيل على شخصية النبيّ أكثر من الإحالة على مفهوم الألوهية، أو هو يحيل على مفهوم الألوهية كما تصوّره الأنبياء، ونكاد نجزم أنّ لكلّ نبيّ تصوّره الخاصّ للإله، وإن كانت هذه التصوّرات تلتقي جميعًا في العديد من النقاط، ذلك أنّ كلّ نبيّ من أنبياء **العهد القديم**، قد صاغ تصوّرًا للإله حسب مزاجه وثقافته ومعطيات عصره؛ لذلك، يمكننا الذهاب إلى القول: إنّ لكلّ نبيّ من أنبياء **العهد القديم** تصوّره الخاصّ للإله، وإن كان يشترك في هذا التصوّر مع أنبياء سابقين له، فآدم مثلًا، وهو أوّل من كشف الله له عن نفسه، كان لا يعرف أنّ الله موجود في كلّ مكان، وعالم بكلّ شيء؛ لذلك أخفى نفسه عنه، ثمّ حاول الاعتذار عن خطيئته، كما يعتذر الإنسان أمام الإنسان، وكأنّنا بهذا التصوّر للألوهية، يظلّ الإله رهينًا في مستوى فهم معرفيّ معيّن خاصّ بمرحلة معيّنة من التفكير الدّينيّ، وقد اقترن هذا التصوّر بعدم إدراك أنّ الله يوجد في كلّ مكان؛ وإنّما يوجد في مكان بعينه، إنّه الإله المتناهي مكانًا والمحدود معرفة، يفهم ذلك من خلال الأسئلة التي طرحها الإله على آدم (أو تصوّر النبيّ أنّ الإله طرحها)، والمتعلّقة بمكان وجود آدم، وبما إذا كان قد أكل من الشجرة المحرّمة؟

وكذا كان تصوّر إبراهيم للإله، وهو تصوّر لا يختلف كثيرًا عن تصوّر آدم؛ فإبراهيم لم يكن يرى أنّ الله موجود في كلّ مكان، وعليم بكل ما يحدث في غير المكان الذي يقيم فيه؛ فهو، حسب هذا التصوّر، مقيم في السماء، وقد اقتضى منه ذلك النزول إلى الأرض (هو، إذن، موجود في الفضاء العلوي فقط، ومنعدم الحضور في الأرض)، ومعرفته تشمل السماء، ولا تطال الأرض؛ لذلك كان لا بدّ من التحوّل إلى الفضاء الثاني، ليعلم ما يحدث فيه من مظاهر الفساد، وحسب هذا التّصوّر؛ فإنّ الإقامة في السماء يترتّب عليها الغياب في الأرض، وجهل كلّ ما يقع فيها.

إنّ للتصوّر السابق منطقه؛ لأنّه ينطلق من ذات النبيّ الإنسان، الذي يتّخذ كيانه مقياسًا به تقاس الأشياء الأخرى، فبما أنّ الإنسان لا يمكنه أن يوجد في مكانين في الوقت نفسه، كذلك الإله، في تصوّر الأنبياء، لا يمكن أن يكون حالًّا إلّا في مكان واحد، في لحظة مّا، وبما أنّ النبيّ الإنسان يجهل ما هو بعيد عنه، كان يعتقد أنّ الإله، وهو في عليائه، يجهل ما يحدث في الأرض (سدوم وعمورة)، ذلك هو تصوّر إبراهيم للإله، وهو تصوّر قريب جدًّا من تصوّر النبيّ آدم.

إنّ هذا التصوّر لا يعكس صورة الإله، بقدر ما يعكس صورة النبيّ؛ فالإله، كما تصوّره أنبياء **العهد القديم**، كائن مظروف مكانيًا، فهو يحلّ بالأمكنة مثلما يحلّ بها أيّ كائن بشريّ، (الجبل، خيمة الاجتماع، منزل إبراهيم، سدوم وعمورة...)، فالمخيال البشريّ أو خيال الأنبياء لم ينأ، وهو يرسم صورة الإله التوراتي عن التصوّرات السائدة والمألوفة آنذاك، وإن كانت الصورة توحي ببعض أوجه الاختلاف عن تصوّر الأمم الأخرى (إله المصريين، إله الكنعانيين...).

وقد ظلّ هذا التصوّر للإله اليهودي، يتأرجح بين ما هو سائد لدى هذه الأمم، وبين سعي اليهود إلى إيجاد تباين بينهم وبين بقية الشعوب الأخرى، وقد تجلّى هذا التأرجح بين السائد والمختلف، من خلال السعي إلى إيجاد صفات تتعلّق بالإله اليهودي وحده من جهة، ومواصلة عبادة الإله في الصورة التي يتجلّى فيها للأمم الأخرى من جهة ثانية؛ كالإيمان برؤية الإله حسًّا: (موسى يطلب من يهوه أن يراه رؤية عينية)، عبادة بني إسرائيل للعجل عندما غاب موسى أثناء مخاطبته للربّ على الجبل، تجليات يهوه في عناصر طبيعية؛ كالنور، والسحاب، والدخان، والرعد، والصواعق...).

إنّ النصوص المقدّسة، وإن كانت تقول: إنّ الله خلق الإنسان على صورته أو شبيهًا به؛ فإنّه يمكننا أن نذهب إلى القول: إنّ النبيّ أو الإنسان، قد خلق الله على صورته (صورة الإنسان)، أو شبيهًا به، فتنقلب بذلك المقولة، من أنّ الآلهة خلقت الإنسان على صورتها، إلى القول: إنّ الإنسان خلق الآلهة على صورته.

إنّ صورة الإله، كما تتجلّى في **العهد القديم**، تظلّ قريبة جدًّا من صورة الإنسان الكائن الزائل، وسيترتّب على التصوّر المؤنسن للإله، رسم للأنبياء، ولكيفية تفاعلهم معه، يلفت انتباه متقبّلي نصوص **العهد القديم** من غير اليهود خاصّة.

إنّ اللافت في الديانة اليهودية: أنّها ليست دين نبيّ؛ وإنّما دين أنبياء؛ فإذا ما كانت أغلب الأديان تنهض على نبيّ واحد، به تبدأ وبه تنتهي، فتعرف بذلك اكتمالها معه، واليهودية، مثلًا، قد ضمّت عديدًا من الأنبياء؛ إذ تلا موسى أنبياء كثر لا يقلّون قيمة عنه، وإن لم يخرجوا عمّا جاءت به شريعته، باعتبارهم، حسب التقليد اليهودي، مفسّري توراته المخلصين، وقد واصلوا رسالته؛ لذلك نجد في الأسفار التالية للتوراة، إحالات عديدة على كتب الشريعة الموسوية؛ فقد أوصى داود ابنه سليمان لمّا أحسّ بدنوّ أجله، قائلًا: ״احفظ شرائع إلهك، وأطع فرائضه، ووصاياه، وأحكامه، وشهاداته، كما هي مدوّنة في شريعة موسى״[14]. وقد عدّ موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق.

لكنّ أنبياء **العهد القديم**، على كثرتهم، لا أحد منهم يبسط بمفرده كلّ شيء، أو هو يمثّل كلّ شيء، أو به وحده تكتمل الديانة اليهودية؛ فالنبيّ يتلو النبيّ دون أن يكرّره، وهو إن كان يلتقي معه أحيانًا كثيرة، فإنّه قد يضيف إليه أشياء لم تذكر في النبوّة السابقة، بسبب التغييرات الثقافية والاجتماعية والسياسية، وقد سبقت الإشارة إلى أنّ مشاغل الأنبياء لم تكن هي نفسها عندهم جميعًا؛ فهم عديدون، لكنّهم مختلفون ومتباينون في عديد الأشياء؛ لذلك نتساءل، مثلًا: ما الذي يجمع بين النبيّ موسى الذي يجعل الزنى أمرًا محظورًا، وبين هوشع الذي يتزوّج من فاجرة؟ وما الذي يربط بين موسى الذي تعاقب شريعته الزاني بالموت، وبين يشوع الذي صفح عن الزانية راحاب وأهلها؛ لأنّها أخفت جاسوسيه اللذين أرسلهما ليستطلعا أحوال أريحا قبل غزوها والاستيلاء عليها؟[15].

إنّ أنبياء **العهد القديم** لا يستنكفون عن الجنوح إلى بعض التصرّفات المشينة والسلوك غير السويّ من المنظور الإسلامي، على الأقلّ؛ فبعضهم يتعاطى الخمر فيسكر، فتتعرّى عورته (نوح بعد الطوفان)، والبعض الآخر يتعاطى الزنى أو الجنس المحرّم، وإن كان في غير وعي منه (مضاجعة ابنتي لوط لأبيهما، بعد أن سَقَتَاهُ خمرًا)[16].

أمّا سليمان؛ فقد خالف ما شرّعه الإله في عديد الأشياء: الزواج من عديد النساء، الزواج من الأجنبيات، عبادة آلهة غير إله بني إسرائيل، وقد جاء في سفر الخروج (20: 3): ״لا يكن لك آلهة أخرى سواي״.

---

14 ملوك الأول2: 3

15 انظر: يشوع 6: من 22 إلى 25

16 انظر: تكوين 19: من 31 إلى 35

وحذّر الربّ سليمان، عندما تجلّى له، من عصيان الوصايا والفرائض الإلهية، ومن عبادة آلهة غير إله بني إسرائيل[17]، وحذّر يهوه الملك من أن يكون مزواجًا حتّى لا يزيغ قلبه[18].

لكنّ سليمان تعدّى جميع هذه التحذيرات، فأولع بنساء غريبات كثيرات، وتزوّج من الأجنبيات؛ فكانت له 700 امرأة و300 محظية، "فانحرفن بقلبه عن الربّ، واستطعن في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى، فلم يكن قلبه مستقيمًا مع الربّ، إلهه، كقلب داود أبيه، وما لبث أن عبد عشتاروت (إلهة الصيدونيّين)، وملكوم (إله العمّونيين البغيض)، وارتكب الشرّ في عيني الربّ..."[19].

إنّ تصرّفات الأنبياء السابقة تصدم بعمق المتقبّل المسلم؛ لأنّها تقدّم صورة مناقضة تمامًا للصورة التي يرسمها الإسلام للأنبياء، بما فيهم الأنبياء المذكورون سابقًا، فكيف يمكن أن نعلّل هذا السلوك النبويّ من داخل الدائرة الإيمانية اليهودية؟

تصوّر النبيّ في العهد القديم:

إنّ النبيّ في التصوّر الدينيّ اليهودي، نبيّ دون أن يكون قدّيسا [20]؛ فهو، إذن، بشر يخطئ ويصيب، تعتريه فترات ضعف، وهو ليس معصومًا عن الخطأ، والتدين، والتعبّد، والقدرة على أن يكون المرء تقيًّا ليست سلوكًا مقصورًا عليه دون سواه؛ لأنّها أفعال يمكن أن يقوم بها جميع الناس[21]. وينبغي أن نذكر أنّ ما يجعل الإنسان نبيًّا في اليهودية، ليست التهيئة النفسية السابقة؛ أي المؤهّلات النفسية والجسدية والأخلاقية أو الروحية السابقة لإعلان النبوّة، مثلما هو الشأن في المنظومة الدينية الإسلامية، التي تلحّ على توفّر تلك المؤهلات وسلامته؛ وإنّما فعل الإله يهوه هو الأصل في اختيار الأنبياء، لكن ينبغي أن نشير، كذلك، إلى أنّ اختيار النبيّ كان قد سبق باصطفاء أعمّ وأشمل، هو اختيار الإله للشعب من بين الأمم الأخرى، ليكون شعب الله المقدس؛ فالله اختار، إذن، أنبياءه من بين الشعب الذي اصطفاه هو، وهو اصطفاء جعل بني إسرائيل مسؤولين أمام الإله وأمام الناس؛ لذلك، يُنظر إليهم على أنّهم رسل الربّ وخدّامه، ينبغي عليهم أن يسهروا على صيانة الدين في كلّ مكان، فهم يمثّلون منبع النور لدى جميع الشعوب[22]. وبهذه الأسباب، يمكننا أن نفهم لماذا اختار يهوه بني إسرائيل ليكونوا له شعبًا مقدسًا؟ ولماذا كان الفارق بين الأنبياء والشعب غير ذي بال لدى يهوه؟ ولماذا كان الإله يتراجع في عديد الحالات عن قراره القاضي بإفناء الشعب؟ ويمكن أن نضيف

---

17 انظر: ملوك الأول 9: من 5 إلى 6

18 انظر: التثنية 17: 17

19 ملوك الأول 11 من 3 إلى 6

20 Voir L'essence du Judaïsme p87.

21 انظر: المرجع السابق، ص 87

22 انظر: المرجع السابق، ص 113

إلى تلك الأسباب كون الديانة اليهودية ديانة قائمة على التسامح والغفران؛ لذلك، "يظلّ الإله قريبًا من الإنسان وحاضرًا معه، حتّى وإن أبعدت الخطيئة الإنسان عن الإله، فالله خلق الإنسان على صورته، لذلك يظلّ ابنه رغم كلّ شيء"[23]. ولهذا السبب لن يخرق الله الميثاق مع الإنسان، وإن اقترف المخلوق أخطاء أو خرق الميثاق من جهته، جاء في **التلمود**: "إنّي أنا نفسي قبل أن يخطئ الإنسان، وسأظلّ دائمًا أنا نفسي بعد أن يخطئ"[24]. وجاء في **ماهية اليهودية**: "الإله يظلّ قريبًا من الإنسان حتّى إن أدار الإنسان ظهره عنه، وضلّ سبيله، وأبعدته أخطاؤه عنه. إنّ الإله الذي يحاكم ويعاقب ما انفكّ دائمًا يكون إله محبّة ...، إنّه يتذكّر رحمته في لحظة غضبه"[25]. ويؤكّد **التلمود**: "أنّ عظمة الإله تكمن في الصبر والغفران تجاه المخطئين"[26].

إنّ هذا التصوّر للألوهية، نشأ عنه تصوّر مخصوص لكيفية التفاعل بين الإله والأنبياء، وإنّنا نلفي، أحيانًا، أنّ التفاعل بينهما يقوم على الندّية، والتي تتجلّى علاماتها في مختلف المواثيق أو العهود التي أبرمت بين الإله من ناحية، والأنبياء والشعب من ناحية ثانية، وفي هذه المواثيق يتعهّد كلا الطرفين بإنجاز ما هو منوط بعهدته، ويلاحظ في **العهد القديم**، أنّ الإله هو الذي يدعو إلى إبرام العهد مع النبيّ.

وقد تتجلّى هذه الندّية، كذلك، من خلال اللهجة التي يخاطب بها النبيّ الإله، فنلفي أحيانًا تماهيًا بين المخاطِب (النبيّ)، والمخاطَب (الإله)، إلى درجة تنمحي فيها الفواصل؛ فقد خاطب موسى يهوه مخاطبة النّدّ للندّ، وكأنّ لا فاصل يفصل بينهما، حتّى أنّ النبيّ تلكّأ، وكاد يرفض أمر الإله، عندما أراد أن يرسله إلى فرعون ليطلب سراح بني إسرائيل، قال موسى للإله: "أصغِ يا ربّ: أنا لم أكن في يوم من الأيام فصيحًا، لا في الأمس، ولا عندما خاطبت عبدك؛ إنّما أنا بطيء النطق، عييّ اللسان"[27]. وقال أيضًا: "يا سيد، أتوسّل إليك أن ترسل من تشاء غيري، فاحتدم غضب الربّ على موسى..."[28].

إنّ النبيّ، هنا، ليس خاضعًا دائمًا، ولا خاشعًا إلى ذات متعالية، يستمدّ منها قوّته ونفوذه؛ وإنّما يشعر، أحيانًا، باستقلاليته وقوّته الذاتية؛ لذلك يقف أحيانًا صنوًا للإله ينصحه، ويحاججه، ويراجعه في بعض الأشياء، ويعرض عليه بعض الحلول، ويعدّل من قراراته؛ فموسى كثيرًا ما جعل الإله يتراجع عن إفناء الشعب، وإبراهيم جعله يعدّل قراره المتعلّق بأهل سدوم وعمورة، أمّا أيّوب؛ فيرفع صوته في **العهد القديم** محتجًّا على ما قضى به **الله**، من إنزال المصائب عليه، غير راض بالمصير الذي آل إليه؛ لذلك نلفيه مجادلًا للإله، ومعترضًا على ما حلّ به، ويخاطبه بلهجة فيها من الشدّة والعنف ما يدلّ على عدم رضاه بالقضاء،

23 المرجع السابق، ص 232

24 نفسه، ص 232

25 نفسه، ص 233

26 نفسه، ص 233

27 خروج 4: 10

28 نفسه، 13: 4

وعلى التبرّم ممّا صدر عن الذات الإلهية، يقول أيوب: "لماذا أخرجتني من الرّحم؟ ألم يكن خيرًا لو أسلمت الروح ولم ترني عين؟ فأكون كأنّي لم أكن، فأنقل من الرحم إلى القبر؟ أليست أيامي قليلة؟ كفّ عنّي لعلّني أتمتّع ببعض البهجة قبل أن أمضي إلى حيث لا أعود، إلى أرض الظلمة وظلّ الموت"[29]. إنّ لهجة الندية وروح المخاصمة جليتان في الكلام الذي خاطب به النبيّ الإله، وكأنّ لا فاصل يفصل بين المخاطِب والمخاطَب.

ونلاحظ في **التوراة**، وخاصّة في **العهد القديم** عامة، أن فعل الإله تابع في عديد المواطن لمشيئة النبيّ، وخاصّة النبيّ موسى، فهذا النبيّ هو في الحقيقة الفاعل الرئيس في الأحداث، وهو المؤثّر فيها، فإذا أراد إيقافها تمّ له ذلك عن طريق تضرّعه أو ابتهاله أمام الإله، كي لا ينزل العقاب بالشعب، فيتراجع الإله عن تنفيذ القرار الذي سبق أن اتخذه، أمّا إذا أراد أن يدفع بالأحداث إلى الأمام، فإنّه لن يتضرّع إلى الإله، ولن يبتهل إليه، فينفّذ الإله قراره. وفي **التوراة** عديد الأمثلة التي وقف فيها موسى دون تنفيذ الأمر الإلهي، ويمكن أن نذكر مثالًا نفّذ فيه أمر يهوه؛ لأنّ موسى لم يراجعه فيه[30].

ويقف النبيّ، أحيانًا، ضدّ قرار الإله وفعله فيعطّله، فلا ينفّذ جزئيًا أو كلّيًا؛ لذلك نلاحظ النبيّ يسعى إلى القيام بأفعال ضدّ إرادة الإله، دون أن يبتهل إليه، أو يطلب المغفرة للمخطئين، جاء في سفر العدد "فقال الرب لموسى: أخرجا من بين هذه الجماعة؛ لأنني سأفنيهم في لحظة، فخرّا على وجهيهما، ثمّ قال موسى لهارون: خذ المجمرة، وضع فيها نارًا من على المذبح، وأيضًا، بخورًا، وأسرع إلى الجماعة لتكفّر عنهم؛ لأنّ الغضب المحتدم قد صدر عن الربّ، وتفشّى فيهم الوباء. فنفّذ هارون أمر موسى، وأسرع إلى وسط الجماعة، وإذا بالوباء قد بدأ يتفشّى فيهم، فوضع البخور، وكفّر عن الشعب، ووقف هارون بين الموتى والأحياء، فتوقّف الوباء"[31].

إنّ إرادة موسى تسير في اتجاه مضادّ لإرادة الإله، وكأنّنا بالنبيّ يفوق الإله في الرحمة والمغفرة، وكأنّنا بموسى النبيّ هو الذي أضفى على يهوه الإله بعضًا من صفاته (الرحمة والمغفرة).

أثر فعل تدوين الوحي/الإلهام في تصوّر النبيّ والإله:

إنّ الإله في **العهد القديم**، وإن بدا كائنًا مفارقًا (عملية الخلق، اجتراح المعجزات)؛ فإنّه يظلّ قريبًا جدًّا من أنبيائه، ومن الإنسان بصفة عامّة، ويمكن أن نضيف: أنّ الوحي إن كان في الأصل تواصلًا بين الإله والإنسان، بواسطة النبيّ فإنّ بعض الأطراف الأخرى، كان لها دورها في الحقب اللاحقة؛ إذ ليس من

29 أيّوب 10: من 18 إلى 21

30 انظر: العدد 16: من 20 إلى 35

31 العدد 16: من 44 إلى 48

الضروريّ أن يكون النبيّ هو ناقل الوحي ومدوّنه؛ لأنّ **الكتاب المقدّس**، قد دوّنه كتبة أو رجال دين بإلهام من الروح القدس، في فترة زمنية لاحقة أو هي بعيدة زمنيًّا عن عهد النبيّ صاحب الرسالة:

الله

↓

النبيّ ← الناس ← الروح القدس ← المدوّن/الكاتب

لذلك، لا بدّ من التمييز، في الديانتين اليهودية والمسيحية، بين مرحلتين أو فترتين من الوحي على الأقلّ؛ الفترة الأولى: هي تلك التي تمّ فيها التواصل بين النبيّ والإله بالطريقتين الحسّيتين للوحي (تجلّي الإله أو الملاك للنّبيّ؛ سماع النبيّ لصوت يعتقد أنّه صوت الإله يخاطبه)، ويكون النبيّ، في هذه الحالة، يعيش حالة وجدانية أو فكرية يتلقّى أثناءها الوحي، أو هو يتنبّأ، مثل تنبّؤات حزقيال أو إرميا، بإلهام من الإله.

أمّا المرحلة الثانية: فهي لاحقة زمنيًّا بالأولى، لكنها بعيدة من حيث الزمن عنها؛ فالنبيّ ليس هو الذي دوّن الوحي الخاصّ به؛ وإنّما دوّنه شخص آخر لم يعاصر النبيّ. وقد تفصل بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية قرون عديدة؛ **فالتوراة**، مثلًا، وهي الأسفار الخاصة بموسى، أو هي ناموسه وشريعته، لم يكتبها موسى، ولا حتّى خليفته أو خادمه الأمين النبيّ يشوع؛ وإنّما دوّنت بعد وفاته بقرون. يقول سبينوزا: إنّ مدوّنها هو (عزرا) صاحب السفر الخامس عشر في **العهد القديم** من الكتاب المقدس، لذلك، يبدو الفصل بين فعل الوحي وتدوينه عميقًا، فإذا ما كان موسى قد عاش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أو الثالث عشر ق.م، حسب اختلاف الروايات[32]، فإنّ عزرا المدوّن قد عاش في القرن الخامس قبل الميلاد؛ فالمدّة الفاصلة بين مرحلة الوحي وزمن التدوين تتراوح بين 10و8 قرون.

ورد في **قاموس الكتاب المقدس:** أن اليهود يعتقدون أنّ عزرا؛ هو الذي جمع أسفار **الكتاب المقدس** ونظّمها[33]، وورد في هذا القاموس، عند التعريف بسفر عزرا، القول التالي: «هو السفر الخامس عشر من أسفار **العهد القديم**، حسب ترتيب الأسفار الحاضرة، وكان في الأصل جزءًا من عمل يتألّف من أسفار؛ **أخبار الأيام الأول والثاني، وعزرا، ونحميا**، وقد كتب هذا الكتاب الشامل بقلم رجل واحد في وقت واحد، وسفر **عزرا** يتمّم أخبار سفري أخبار الأيام، والأسلوب فيها كلّها أسلوب واحد»[34].

إنّ ما يستفاد من الشاهد السابق، هو أنّ عزرا لم يدوّن السفر الخاصّ به فحسب؛ وإنّما دوّن كذلك أسفارًا ثلاثة أخرى، هي؛ **أخبار الأيام الأول**، و**أخبار الأيام الثاني، ونحميا. ويرى سبينوزا** أنّ الكاهن عزرا دوّن الأسفار الخمسة الأولى، بالإضافة إلى الأسفار الآتية: **يشوع- القضاة- راعوث- صموئيل- الملوك**، يقول

32 انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص 933

33 انظر: نفسه، ص 621

34 نفسه، ص 622

سبينوزا: «فإذا أخذنا في اعتبارنا هذه الخصائص الثلاث: وحدة الغرض في جميع هذه الأسفار، وطريقة ربطها فيما بينها، وتأليفها بعد الحوادث المروية بقرون عديدة، نستنتج من ذلك، كما قلنا من قبل: أنّ مؤرّخًا واحدًا هو الذي كتبها»[35].

ويمكننا أن نفهم الفاصل الزمني بين النبيّ والمدوّن من ناحية، وبين زمن النبوّة (الوحي)، وزمن التدوين من ناحية أخرى، من خلال صيغ الخطاب؛ فهذه الصيغ تؤكّد أنّ زمن التدوين ليس هو زمن الوحي؛ لذلك يرد الكلام في صيغة كلام مسرود (أسلوب غير مباشر)، يغلب عليه ضمير الغائب، وقلّما نعثر على مقاطع يتكلّم فيها النبيّ مباشرة بضمير المتكلّم، يقول الراوي في **سفر الخروج**: «وأمّا موسى فكان يرعى غنم حميه يثرون كاهن مديان، فقاد الغنم إلى ما وراء الطرف الأقصى من الصحراء، حتّى جاء إلى حوريب جبل الله، وهناك تجلّى له ملاك الربّ بلهيب نار وسط علّيقة، فنظر موسى، وإذا بالعلّيقة تتّقد دون أن تحترق»[36].

وجاء في مفتتح سفر إشعياء، ما يدعم ما ذهبنا إليه: «هذه هي رؤيا إشعياء بن آموص، التي أعلنت له بشأن يهوذا وأورشليم»[37]، فلا الإله ولا النبيّ يتكلّمان مباشرة في **الكتاب المقدّس** بعهديه القديم والجديد؛ وإنّما ينقل كلامهما (وخاصة كلام الأنبياء؛ لأنّ الإله قليل التكلّم في الكتاب المقدّس) راو، أو بالأحرى، كاتب قد يكون عاش بعد عهد النبوّة بمدّة طويلة، تتعدّى أحيانًا مئات السنين، وهذه المدّة الفاصلة بين زمن الوحي (الزمن الذي عاش فيه النبيّ)، وزمن الإلهام (الزمن الذي كتب فيه النص بإلهام من الروح القدس)، يجعلنا نتساءل عن أثر هذه المدّة في النصّ المقدّس، بالزيادة والحذف من ناحية، وعن أثر الرواية الشفوية، بالتغيير والتبديل، قبل الاستقرار عن طريق الكتابة من ناحية ثانية، وقد وجد اليهود والمسيحيون في الروح القدس المعزّي للخروج من هذا الإشكال[38].

هل يسوع/عيسى مجرّد نبيّ؟

أمّا في المسيحية؛ فإنّنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة متفرّدة عجيبة، إذا ما نظرنا إلى المسألة من رؤية مسيحية، ويمكننا أن نتساءل: هل نحن إزاء نبيّ ونبوّة، أو نحن إزاء ظاهرة دينية لها من التجلّيات ما يجعلها تتجاوز كلّ هذه الأبعاد؟ كيف ينظر المسيحيون إلى يسوع؟ وماذا يمثّل بالنسبة إليهم؟

تذهب المسيحية إلى القول: إن يسوع «أعظم من نبيّ»، أو هو «أكثر من نبي»، حسب عبارة الأب موريس بورمانس[39]. وما يشدّ يسوع إلى قطب الأنبياء، أنّه مرسل ومبلّغ لرسالة، وجاء بقيم وأخلاق كان

35 رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 277

36 خروج 3: 1- 2

37 إشعياء 1: 1

38 ينعت الروح القدس في نصوص العهد الجديد بالمعزّي.

39 انظر: مقاله بالعربية، ضمن الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني، وقد أدرج هذا المقال بالفرنسية ضمن أعمال هذا الملتقى، ص 331

الأنبياء السابقون قد دعوا إلى اعتناقها والعمل بها، وقد اجتهد، شأنه شأن الأنبياء السابقين، في نشر تعاليمه، وتعليم الناس مبادئه وقيمه طوال سنوات ثلاث (مدّة الكرازة)، وكان يضرب الأمثال (paraboles) من أجل إفهام تعاليمه، كما كان يفعل الأنبياء قبله.

لكن ينبغي أن نشير إلى أنّ هذه العناصر غير كافية لتحديد شخصية يسوع من منظور مسيحيّ؛ فهو إن كان مرسلًا ومبلّغًا، فيكون رسولًا مبلّغًا من نوع خاصّ، يختلف عن المرسلين والمبلّغين السابقين جميعًا، لذلك، نعت بأنّه: «أعظم من نبيّ». لقد كان يسوع يَمْثُلُ أمام الناس بطريقة تجعلهم يرون فيه نبيًّا؛ فحضوره في المعبد كان يعطي انطباعًا على أنّه رجل من رجال الدين (حاخام، ربّيّ، حبر)، جاء يعرض مضمون **الكتاب المقدس**، ومن خلال ذلك، كان يعرّف الناس بالإرادة الإلهية، ولكن سرعان ما نتبيّن الفرق بين طريقته في تفسير **الكتاب المقدس**، وطريقة الحاخامات؛ فهو يتكلّم وكأنّه صاحب سلطة/سلطان، وبالعودة إلى النصّ الإنجيلي؛ نجد ما يؤكّد هذا النعت الذي يوصف به المسيح؛ فقد جاء في إنجيل مرقس: «ثمّ ذهبوا إلى كفرناحوم، فدخل حالًا في يوم السبت إلى المجمع، وأخذ يعلّم، فذهل الحاضرون من تعليمه؛ لأنّه كان يعلّمهم كصاحب سلطة، وليس كالكتبة، وكان في مجمعهم هناك رجل يسكنه روح نجس، فصرخ، وقال: ما شأنك بنا يا يسوع الناصريّ؟ أجئت لتهلكنا؟ أنا أعرف من أنت، أنت قدّوس الله، فزجره يسوع قائلًا: اخرس، واخرج منه. فطرح الروح النجس الرجل، وصرخ صرخة عالية، وخرج منه، فدهش الجميع حتّى أخذوا يتساءلون في ما بينهم: ما هذا؟ إنّه مذهب جديد ذو سلطة، فحتّى الأرواح النجسة يأمرها فتطيعه»[40]، إنّه يتكلّم كصاحب سلطة، وليس كما يتكلّم الكتبة[41].

إنّ يسوع، وإن كانت بعض الأشياء تقرّبه من الأنبياء؛ فإنّ صفة نبيّ لا يمكن أن توافقه تمامًا؛ فهو يتجاوز النبوّة، ويتعدّى حدود الأنبياء. صحيح أنّ له، كما هو شأن الأنبياء، معرفة جديدة عن الإرادة الإلهية كان يعلّمها الناس، وكانت لديه حقيقة جاء ليبلّغها، وهي نابعة من مصدر يتجاوز قدرة أيّ إنسان وإمكاناته، ولكن هذه الحقيقة التي جاء ليعلنها للملأ تنبثق ممّا وراء عالم الإنسان؛ أي من عالم الغيب، لكنه لم يكن رغم ذلك أيًّا من الأنبياء، فهؤلاء جميعًا كانوا يستمدّون سلطتهم من صوت أو نداء كان قد وجّه إليهم، وكانوا يرجعون دائمًا إلى كلمة كانت قد بلّغت إليهم، وكان عليهم ترديدها وتبليغها بأمانة؛ لذلك يتكثّف حضور العبارات التالية: قال الرب...، تكلّم الرب...، قال يهوه...، قال الله...، قال الله تعالى ...

أمّا يسوع، فلم يكن كهؤلاء الأنبياء؛ فقد كان، على العكس من ذلك، يعلن بوضوح لا يقبل اللّبس: أنّه ليس نبيًّا، وأنّ زمن الأنبياء قد ولّى، وأنّنا الآن في عهده الجديد أمام ظاهرة دينية تتجاوز النبي، وأنّه أعظم من أنبياء **العهد القديم**، أعظم من يونان ومن سليمان، ذلك ما أعلنه يسوع نفسه أمام بعض الكتبة والفرّيسيين، جاء في إنجيل متّى: «سيقف أهل نينوى يوم الدينونة مع هذا الجيل، ويدينونه؛ لأنّهم تابوا لمّا أنذرهم يونان،

---

40 مرقس 1: من 21 إلى 27

41 انظر: لوقا 4: 31 وما بعدها.

وهاهنا، أعظم من يونان. وستقوم ملكة الجنوب يوم الدينونة مع هذا الجيل وتدينه؛ لأنّها جاءت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان، وهاهنا، أعظم من سليمان»[42].

لقد نعت المسيح يوحنّا المعمدان: بأنّه أعظم من نبيّ؛ لأنّه لا يبشّر بالوحي المباشر (الوحي بلا واسطة)؛ أي بالمسيح، وكان الكثير من أنبياء **العهد القديم** يبشّرون بيسوع، لكنهم لم يسبقوا بمن يبشّر بهم؛ لذلك، نجد من يتحدّث عن الإرهاصات المتوفّرة في **العهد القديم** المحيلة على عهد المسيح؛ أي **العهد الجديد**. وقد أكّد مدوّنو الأناجيل ما يربط يسوع بالأنبياء، لكنهم أبرزوا، من ناحية ثانية، ما يجعله أعظم منهم جميعًا، نقرأ في إنجيل متّى: «إذن، ماذا خرجتم لتروا؟ أنبيًّا؟ نعم، أقول لكم، وأعظم من نبيّ؛ فهذا هو الذي كتب عنه: ها إنّي مرسل قدّامك رسولي الذي يمهّد لك طريقك»[43]. لكنّ يوحنّا هذا، وهو أعظم من أيّ إنسان ولدته امرأة، قد مرّ زمانه؛ فهو ينتمي إلى العهود القديمة، أمّا الآن، فقد حلّت العهود الجديدة، وهذه العهود حاضرة؛ لأنّ يسوع حاضر، وهو الحامل لعهد جديد مقابل العهد القديم الذي حمله الأنبياء.

لقد فوّض الله ليسوع كلّ شيء، بينما لم يفوّض للأنبياء إلّا تبليغ الرسالة؛ لذلك، يظلّ هؤلاء الأنبياء في انتظار القيام بما يؤمرون به عن طريق الوحي بمختلف كيفياته، أمّا المسيح؛ فلا ينتظر أيّ وحي ولا أيّ أمر فوقيّ، فكلّ ما يتفوّه به نابع من ذاته، وهو يتمتّع باستقلالية ذاتية عجيبة، وليس في حاجة إلى انتظار الوحي؛ لأنّه هو نفسه الوحي باعتباره الكلمة (Verbe)، أو كلام الله (Parole de Dieu)، تجلّى فيه وبه، ولا يمكن أن نفصل في حياته بين لحظتين متناقضتين متباينتين، مثلما هو شأن الأنبياء: لحظة نزول الوحي؛ حيث يبدو النبيّ متجاوزًا لمنزلة الكائن البشريّ، بحكم معانقته للذات الإلهية، عن طريق ما يوحى إليه، ولحظة حياته العادية؛ حيث يضحي النبيّ إنسانًا عاديًا يحيا حياة الناس العاديين، وحياته كلٌّ متكاملٌ لا يقبل التجزئة أو الانفصام، وشخصيته كلّ متكامل غير قابل للتجزئة، ولا يمكن أن نتحدّث عن لحظة غياب للوحي في العقيدة المسيحية؛ لأنّ حياة يسوع كلّها مفعمة، وحيا باعتباره الوحي ذاته.

إنّ الوحي عند المسيحيين لم يكتمل إلّا بعهد المسيح/العهد الجديد، وهذا يعني؛ أنّ الوحي قبله كان مبتورًا، واكتمل بتجلّي يسوع، والوحي في المسيحية قد عرف نهايته واكتماله بظهور المسيح، «هو الوحي الكامل للآب السرمديّ؛ ولهذا هو الحضرة الإلهية المستقرّة بين البشر»[44].

وتتجلّى هذه الاستقلالية الذاتية العجيبة في شخصية المسيح، من خلال النظر في مرجعيات الكلام الذي يخاطب به أتباعه؛ فبينما يسعى غيره من الأنبياء إلى تأكيد أنّ ما يتفوّهون به، هو ذو مصدر إلهيّ متعال، ليضفوا على خطابهم مصداقية، فإنّنا لا نجد في حال يسوع مثل هذا العناء، فهو لا يحيل على مرجعية

42 متّى 12: 41- 42، وانظر: متّى 13: 17

43 متّى 11: 9- 10

44 الأب موريس بورمانس، الوحي الإلهي ومشاكله في نظر الفكر المسيحي، ص 332

متعالية؛ بل يؤكّد أنّ الكلام كلّه نابع من ذاته، والأفعال صادرة عن إرادته، والمعجزات آتية عنه، دون أن يرجعها إلى قوّة خارجة عن ذاته؛ لذلك نجد تواترًا للعبارات الآتية: الحقّ أقول لكم...، أمّا أنا فأقول...

ويستخلص من هذا، أنّه يمكن أن نميّز في كلام الأنبياء بين ضربين أو مستويين من القول:

أ- ما هو صادر عن الذات الإلهية؛ أي الوحي أو الكلام المقدس.

ب- ما هو صادر عن النبيّ الإنسان؛ أي الكلام البشري، لكن هذا الفصل غير جائز في حال المسيح، ذلك أن كلّ ما يصدر عنه كلام مقدس. وظاهرة الفصل جلية بوضوح في الإسلام بين كلام الله/القرآن، وكلام النبيّ/الحديث، حتّى أنّ محمدًا نفسه كان ينبّه على هذا الفصل، عندما نهى بعض أصحابه عن تدوين ما كان يتفوّه به في أحواله العادية؛ أي عندما يكون في غير حالات الوحي، خوفًا من أن يلتبس كلامه ويختلط بالقول الإلهي، ورغم أنّ السنة النبوية المحمدية تفسّر، في العديد من نصوصها، كلام الله؛ فقد ظلّ القرآن أعلى منها منزلة، وهو المصدر الأول في الأحكام والتشريعات والأخلاق والعبادات؛ لذلك ظلّ الفاصل المادّي قائمًا بينها وبين نصّ الوحي.

إن المفارقة بين الإله والنبيّ، تظلّ قائمة في نصوص **العهد القديم**، وخاصة في **التوراة**؛ فالنبيّ مهما تبلغ مكانته عند الإله[45]، يظلّ في منزلة دنيا بالنسبة إلى الخالق؛ لذلك، لا تجوز المقارنة بين الإله والنبيّ، جاء في **التوراة** على لسان إبراهيم: «فأجاب إبراهيم، وقال: إنّي قد شرعت أكلّم المولى وأنا تراب ورماد»[46]. إنّ الإله في **العهد القديم**، رغم ما يكنّه من تقدير واقتراب من الإنسان، بصفة عامّة، ومن الأنبياء، بصفة خاصة[47]، يظلّ مفارقًا لهما، وهذه المفارقة القائمة على التقابل والتباعد تظلّ حادّة وعميقة، وسيعمل الإسلام على تصعيد هذه المفارقة وتقويتها، عندما يجعل التقارب بين الإله والنبيّ، الذي نجد له أمثلة في **العهد القديم**، أمرًا مستحيلا[48].

أمّا في **العهد الجديد**؛ فإنّ هذه المفارقة مضمحلّة، أو هي مفقودة تمامًا؛ إذ لا نجد فارقًا بين الإله ويسوع، فهما متطابقان ومتناظران إلى درجة تذوب فيها جميع الفوارق، وتزول فيها جميع الحدود والفواصل، فيسوع يقول لأتباعه: «من رآني فقد رأى الله»، وإذا ما ذكرنا آنفًا أنه لا مجال للتقريب بين النبيّ والإله في الإسلام خاصة، فإنّه يسوّغ لنا القول في حال المسيحية: إنّه لا مجال للمباعدة بين الإله والمسيح؛ لأنّهما مندغمان

45 مثل مكانة موسى عند يهوه؛ إذ يعدّ أعظم أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق، جاء في نهاية سفر التثنية، ولم يظهر بعد نبيّ في بني إسرائيل، مثل موسى الذي خاطبه الربّ وجهًا لوجه، وأقامه ليجري جميع الآيات والمعجزات في ديار مصر على فرعون، وعلى جميع عبيده؛ إذ لم يستطع أحد أن يصنع العظائم المخيفة بقدرة فائقة، كما فعل موسى أمام كلّ بني إسرائيل" (التثنية 34: من 10 إلى 12).

46 تكوين 18: 27.

47 ورد في تكوين 18: 17- 18، فقال الربّ: "أأكتم عن إبراهيم ما أنا فاعله؟ وإبراهيم لا بدّ أن يصبح أمّة كبيرة وقوية".

48 نقرأ في سورة الشورى (53): الآية 11، "ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير".

متطابقان، ولا غرو؛ فالمسيح: هو الأقنوم الثاني في الثالوث المكوّن للألوهية، حسب التّصوّر المسيحي، ولا غرو، كذلك؛ فإنّ يسوع: يدعى «عمّانوئيل»، ويحمل هذا الاسم معنى «الله معنا»[49].

إنّه بالإمكان القول: إنّ كلام المسيح ليس مبلّغًا، على أنّه ذو مرجع يعود إلى مصدر ماورائيّ، لكنّه كلام يعبّر عن حضور العالم الآخر، عالم الغيب؛ لذلك عندما يتكلّم يسوع ويفعل، فإنّ الله هو الذي يتكلّم ويفعل في الحقيقة، ولذلك تكون أعلى درجة للتجلّي الإلهي، هي المسيح نفسه؛ فالله تكشّف للبشر عن طريق حياة المسيح وأعماله، ومنذ أن عاش يسوع بين الناس، تمكّن الإنسان من معرفة من هو الله، حسب المعتقد المسيحي، ذلك أنّ وجود المسيح في دنيا الناس، لا يحيل على ظاهرة النبوّة، بقدر ما يدلّ على الحضور الإلهي في العالم، وفي التاريخ بعد أن تجسّد الله؛ أي اتخذ لنفسه وجودًا بشريًا.

ويمكن أن ندعم هذه المكانة التي يحتلّها يسوع في المسيحية، باعتباره جوهرها وحجر أساسها، بالإشارة إلى بعض الصفات التي ينعت بها؛ فهو في النصّ الإنجيلي: «ابن الله»، وهذه العبارة ينبغي أن تفهم على أنّ لها دلالة وظيفية، وهي تعني: «الذي منحه الله مملكته، وقد أنجبه من أجل هذه الوظيفة؛ فالعبارة لا تحيل، إذن، على أصل أو رابط ميتافيزيقي للكائن؛ فقد كان المسيح يملك، بوصفه ابن الله، نفوذ الفعل أو سلطته عوضًا عن الله، وهو الذي منحه الله قوّته كاملة وسلطته العليا»[50].

وتنهض المسيحية، من جهة أخرى، على مفهوم القيامة بعد موت يسوع مصلوبًا، ولا تعني لفظة القيامة، هنا، البعث الأخروي في مفهومه الإسلامي العام؛ وإنّما يقصد بالكلمة: قيامة المسيح من القبر بعد ثلاثة أيام من موته، ليصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين الآب.

وتمثّل القيامة في العقيدة المسيحية حجر الزاوية، وهي ركن أساسي من أركان هذه العقيدة، ليس لأنّها تتعلّق بمن يمثّل قلب الدين المسيحي فقط؛ وإنّما لأنّ في تغييب الإيمان بها، لن توجد الديانة المسيحية، وقد أشار القدّيس بولس في **الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس**، إلى هذا الجانب، قائلًا: «فإن لم تكن قيامة أموات، فلا يكون المسيح قد قام، وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا، وباطل أيضًا إيمانكم، ونوجد نحن أيضًا، شهود زور لله؛ لأنّنا شهدنا من جهة الله أنّه أقام المسيح، وهو لم يقمه إن كان الموتى لا يقومون؛ لأنّه إن كان الموتى لا يقومون، فلا يكون المسيح قد قام، وإن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم، أنتم بعد في خطاياكم، إذن، الذين رقدوا في المسيح، أيضًا، هلكوا، إن كان لنا في هذه الحياة، فقط، رجاء في المسيح فإنّنا أشقى جميع الناس»[51].

49 متّى 1: 23

50 انظر: ماهية اليهودية، ص 306

51 الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، 15: من 13 إلى 19

ويتساءل بول بوبار(Paul Poupard) صاحب **قاموس الأديان:** عن هذه الأهمّية التي أضفيت على القيامة؟ ويقول: إنّ الإجابة بسيطة؛ فلو لم يؤمن أحد بقيامة يسوع، لنظر إليه على أنّه مجرّد نبيّ عظيم، أو ربيّ (Rabbi) يهوديّ، ولن يُنظر إليه على أنّه المسيح؛ أي المخلّص الحقيقي للناس، وأنّه ابن الله الحقيقي. إنّ الإيمان بالمسيح (المنقذ الحقيقي للناس) وبالبنوّة، هو ما نشأت عنه العقيدة المسيحية؛ فقيامة المسيح والإيمان بها، هما العنصران المؤسسان للعقيدة المسيحية.

إنّ الله في **العهد الجديد** يتكشّف على أنّه إله القيامة، والإيمان بقيامة المسيح من القبر من شأنه أن يعمّق الإيمان بالإله، وهو ما ذهب إليه القدّيس بطرس (Pierre) في الرسالة الأولى[52].

تلك هي نظرة المسيحية إلى نهاية المسيح على وجه الأرض، وهي نهاية يمكن أن نتأمّلها من ناحيتين؛ الناحية الأولى: تتمثّل في سعي المدوّنين المسيحيين إلى أن يكون نقلهم لحياة المسيح نقلًا واقعيًا، على صلة بالحقيقة التاريخية[53]، عندما تعرّضوا إلى المرحلة الأخيرة من حياة يسوع، فذكروا كيد اليهود له، والقبض عليه، واقتياده إلى مكان الصلب، ثمّ موته مصلوبًا.

أمّا الناحية الثانية: فينأى فيها هؤلاء المدوّنون عن الأولى، عندما يذكرون قيامة المسيح، وما تلاها من عديد تجلّياته لتلاميذه وأتباعه وأمّه، وما حفّ بتلك القيامة من ظهور كائنات عجيبة كالملائكة. وقد اختلف مدوّنو الأناجيل في هذه التجلّيات، من حيث؛ عددها، وأمكنتها، وأزمنتها، والأشخاص الذين شاهدوها[54].

إنّنا، هنا، إزاء تجلّيات عجائبية، تخرج بالمتقبّل من حيّز الواقع الماثل في الناحية الأولى، إلى فضاء المتخيّل المتوفّر في الناحية الثانية، أو بعبارة أخرى، نخرج من الواقعيّ إلى الأسطوريّ. إنّ هذه الفكرة ستجد نقيضها في النصّ القرآنيّ، فإذا ما سعى هذا النصّ إلى أسطرة المسيح، عندما نفى عنه القتل والصلب، ليقول بنجاته، وقتل شبيهه؛ فإنّه قد نحا به نحوًا واقعيًا بعد ذلك، عندما جعله كائنًا بشريًا عرف الموت، دون أن يصعد إلى السماء، شأنه شأن أيّ كائن بشريّ.

إنّ العقيدة المسيحية تركّز على أنّ يسوع كائن مفارق، والاعتقاد بهذه الفكرة يجعلنا نطرح سؤالا مهمًّا: هل يمكن أن نتكلّم عن يسوع باعتباره نبيًا من منظور مسيحيّ؟ إنّ القول بالمفارقة في شخصية المسيح، يمكن أن يطرح بعض الإشكالات بين اليهودية والمسيحية، في هذه المرحلة من دراستنا منها:

---

52 انظر: رسالة بطرس الأولى 1: 21

53 هذا إذا نحن ذهبنا إلى القول بتاريخية وجود المسيح، وهنا، يمكن أن نشير إلى رأي حفني ناصف في كتابه (**المسيح من منظور معاصر**)؛ الذي يذهب إلى القول: إنّ المسيح كائن أسطوريّ.

54 انظر: الأصحاحات الأخيرة من الأناجيل الأربعة.

-1 تعتقد اليهودية (الأرتودكسية على الأقلّ): أن كمال الوحي الإلهي، قد أوحي إلى النبيّ موسى في جبل سيناء؛ لذلك عدّ أعظم أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق، وهذا يعني؛ أنّ الوحي قد اكتمل مع هذا النبيّ. أمّا المسيحية؛ فيعتقد أتباعها أنّ الوحي الإلهي قد عرف اكتماله مع المسيح؛ إذ ليس من المنطقيّ أن يكتمل في فترة مبكّرة من الزمن، «ومن ذلك تظهر طرافة النظرة المسيحية إلى الوحي؛ إذ تعتبر أنّ كماله لا يؤتى به في أوائل التاريخ أو في أواسطه؛ بل بالأحرى في نهايته، «عندما يجمع في المسيح كلّ شيء ممّا في السموات وفي الأرض»، على حسب ما قال القديس بولس الرسول لأهل أفسس 1: 10»[55].

-2 ترى اليهودية أنّ كلام الله هو **التوراة** أو شريعة موسى. أمّا المسيحية فتؤمن بأنّ المسيح هو كلام الله، أو كلمة الله Parole de Dieu/ Verbe de Dieu؛ فيكون مضمون الوحي مختلفًا تمام الاختلاف بين الديانتين، وسيتعمّق هذا الاختلاف عندما ندرس الوحي في الإسلام.

الوحي/النبوّة/النبيّ في الإسلام:

ورد في **لسان العرب:** أنّ الوحي: هو الكتابة، والإشارة، والرسالة، والإلهام، وهو الكلام الخفيّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك، وهو المكتوب والكتاب أيضًا، وهو، كذلك، الإيماء، وقيل سمّيّ كلام الله بالوحي؛ لأنّ الملك أسرّه على الخلق، وخصّ به النبيّ، وقيل كذلك: إنّه الإعلام في خفاء.

إنّ هذا التعريف اللغوي، يمكن حصره في نقطتين: مضمون الوحي؛ كألفاظ الرسالة، والكلام الخفيّ، والإعلام في خفاء. وكيفيات الوحي؛ كالإشارة، والإيماء، والإلهام ... والمتأمّل في النصّ القرآني، يلفي أنّ جلّ المعاني المقصودة من الوحي مستعملة في هذا النصّ؛ فمعنى الوحي في الآيتين الآتيتين: هو الإلهام {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}[56]، و{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ}[57]، أمّا المقصود في الآية الآتية: {فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}[58]؛ فهو الإشارة. ويدلّ على معنى الإسرار أو الإبلاغ في خفاء، في الآية الآتية: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[59].

55 الأب موريس بورمانس، الوحي الإلهي ومشاكله في نظر الفكر المسيحي، ضمن كتاب **الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني**، ص 341

56 النحل (16): الآية 68

57 القصص (28): الآية 7

58 مريم (19): الآية 11

59 الأنعام (6): الآية 112

وجاء في **كشاف اصطلاحات الفنون** للتهانوي: أنّ الوحي يعني؛ «كلام الله تعالى المنزّل على نبيّ من أنبيائه»[60]. ويعرّفه نصر حامد أبو زيد، بأنه: «علاقة اتّصال بين طرفين تتضمّن إعلانًا/رسالة خفيًا وسرّيًا»[61].

إنّ الوحي، حسب ما قرّ في الضمير العربي الإسلامي، هو الكلام الإلهي الحرفي، الذي بلّغه للنبيّ بعديد الطرق، ذكر أهمّها في الآية 51 من سورة الشورى، ثمّ ذكرتها السنّة وبيّنتها. وقد حرص المسلمون الأوائل على نقل هذا النص بأمانة، عن طريق الحفظ والرواية الشفوية، التي كانت تواكبها الرواية النقلية، فكان النبيّ محمد يأمر بعض كتّابه بتدوين ما كان يتلقّاه من وحي، في ما توفّر لديهم من إمكانات للكتابة، حتّى أنّ كثيرًا من الصحابة كانت لهم مصاحف تحمل أسماءهم: مصحف ابن مسعود، مصحف علي بن أبي طالب، مصحف أبي، مصحف حفصة...، ثمّ دوّن القرآن نهائيًا في عهد الخليفة عثمان بأمر منه، وقد بعث هذا الخليفة بنسخ من المصحف، الذي أضحى يسمّى باسمه، إلى الأمصار في البلاد الإسلامية حتّى لا يختلف أهلها في أمر دينهم.

ومن الأمور التي يمكن أن تكون قد ساعدت على النقل الأمين للقرآن: أنّ الوحي ظلّ ينزل على محمد طوال 23 سنة، أو ما يقرب من ذلك، ما بين 610م و632م. ويقول محمد الطالبي: «إنّ هذا التدقيق في محاصرة مدّة نزول الوحي، قلّما نعثر عليه في الأديان الأخرى»[62]، وهذه المدّة موزّعة على مرحلتين؛ المرحلة المكية: (من سنة 610م إلى 622م)، والمرحلة المدنية: (من سنة623م إلى سنة632م)؛ لذلك نجد القرآن مقسّمًا منذ القديم إلى سور مكية وأخرى مدنية، والتسمية، هنا، تعزى إلى مكان نزول الوحي على النبيّ، وإذا ما كان قد شرع في تدوين الوحي منذ حياة الرسول؛ فإنّ السنّة لم يشرع في كتابتها، بصفة رسمية، إلّا في فترة متأخّرة، وقد نهى الرسول أصحابه عن تدوين ما كان يتفوّه به من كلام، حتّى لا يختلط بالقرآن فيلتبس على الناس أمر دينهم، ثمّ لمّا تمكّن القرآن في نفوس النّاس، لم يجد المدوّنون والفقهاء بدًّا من جمع الأحاديث النبوية وتدوينها، وقد اشترطوا في ذلك شروطًا من شأنها أن تؤمّن سلامة الحديث من الوضع والتحريف، وفي هذا الإطار نشأت علوم الحديث.

والمتأمّل في السنة النبوية، يرى أنّها، من حيث تصوّر القداسة، قريبة من تصوّرات اليهود والمسيحيين للنصّ المقدس؛ فإذا ما كانت النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية قد دوّنها مؤمنون بأصحاب تلك الرسالات، بإلهام من الروح القدس[63]؛ فإنّ الأحاديث النبوية قد ضبطها رواة مسلمون يؤمنون بالنبيّ وبرسالته، ثمّ إنّهم لمّا جمعوها، أخضعوها إلى مقاييس صارمة، بعضها يتعلّق بالرواة،

60 التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مادة: وحي.

61 نصر حامد أبو زيد، مفهوم النصّ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، 1998م، ص ص 32-31

62 انظر: professeur Mohamed Talbi-docteur Maurice Bucaille, Réflexions sur le Coran Editions Seghers Paris 1989 p21.

63 دور الروح القدس، هنا، هو حفظ الكلام من الأخطاء، والمساعدة على تذكر أحداث ماضية.

والبعض الآخر بالمتون، ليضمنوا سلامة انتساب الحديث المرويّ إلى محمد، وحتّى وإن لم يخضعوها إلى غربلة صارمة، يميّز فيها الصحيح من الموضوع، فهم تركوا لنا في **علم الجرح والتعديل**، ما يساعد على القيام بهذه المهمّة في أيّ زمن وفي أيّ مكان.

طعون العرب في القرآن زمن محمد:

والمهمّ في المنظور الإسلامي: أن القرآن: هو كلام الله الذي بلّغ إلى محمد بوسائط. وقد دافع القرآن كثيرًا عن كونه قولًا لا يمكن أن يدخله الريب أو التحريف، بالزيادة أو النقصان، ولا يمكنه، كذلك، أن يكون كلامًا بشريًا، أو كلام كاهن، أو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، مثلما ذهب إلى ذلك بعض معاصري محمد، عندما أرادوا أن ينفوا عن هذا النصّ تعاليه وقداسته، وقد جاء الردّ على هذه الاتهامات في عديد السور:

- الاتهام بالجنون: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر(15): 6][64].

- الاتهام بالسحر: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ} [يونس (10): 2][65].

- الاتهام بالكهانة: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} [الطور(52): 29][66].

- الاتهام بالشعر: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور(52): 30][67].

- الاتهام بالتقوّل والافتراء: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الطور(52): 33][68].

إنّ الاتهامات المضمّنة في الشواهد السابقة، تنفي عن القرآن مصدره المتعالي؛ أي تنفي عنه: أن يكون "كلام الله"، لتثبت أنه إنتاج بشريّ مرتبط بطرق الإلهام المعروفة لدى العرب قبل الإسلام، (السحر، الكهانة، الشعر، الجنّ...)، وقد كانت هذه العناصر هي المكوّنات الأساسية للعلم والثقافة لدى العرب قبل الإسلام؛ لذلك تعامل الجاهليون مع القرآن على أنّه لا يختلف، من حيث مصدره وطرق إلهامه، عن مكوّنات الثقافة آنذاك، من حيث مصدرها، وكيفيات استلهامها، فعدّوا القرآن كلام ساحر، أو كلام شاعر، أو كلام كاهن، أو كلام مجنون.

---

64 انظر كذلك: المؤمنون (23): الآية 25- 70، الشعراء (26): الآية 27، سبأ (34): 8- 46، الصافات (37): الآية 3

65 انظر كذلك: الإسراء (17): الآية 47

66 انظر كذلك: المعارج (71): الآية 42

67 انظر: الأنبياء (21): الآية 5

68 انظر كذلك: المؤمنون (23): الآية 38، الشورى (53): الآية 24، يونس (10): الآية 38، هود (11): الآية 13- 35، الأنبياء (21): الآية 5، الفرقان (25): الآية 4، السجدة (32): الآية 3، الأحقاف (46): الآية 8

وقد جاء الردّ في القرآن ذاته، والذي أكّد في عديد المواضع: أنّ الوحي هو كلام الله بلا ريب، وذهب إلى تحدّي الذين قالوا ببشريته أو افترائه. نقرأ في سورة السجدة: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا} (السجدة (32): -2 3)[69].

أمّا تحدّي القرآن للمتّهمين؛ فقد ذكر في المواضع الآتية:

- [الطور (52): -33 34]: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ}.

- [يونس (10): 38]: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ}.

- [هود (11): 13]: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ}.

ولم يُتَوَفَّ النبيّ، حتّى قرّ في ضمير الجماعة الإسلامية الأولى: أنّ القرآن هو كلام الله بلا ريب، وأنّ مبلّغه هو خاتم الأنبياء، وبه يصحّح كلام الله السابق في **التوراة** و**الإنجيل**، وبه يكتمل الوحي ليكون الإسلام هو دين الأديان، وهو الدين الذي ينبغي أن يؤمن به الناس كافّة، {إنّ الدّين عند الله الإسلام} [آل عمران (3): 19]، ونقرأ في الآية 85 من السورة نفسها: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}، وجاء في سورة الصفّ: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف (61): 9].

إنّ ما تقدّم يمكن أن يفضي بنا إلى جملة من النتائج، نذكر أهمّها:

أ- الوحي اكتمل بالقرآن، وما سبقه تجلّيات للوحي لحقها التحريف.

ب- محمد؛ هو خاتم النبوة به اكتملت حلقات الأنبياء، التي ابتدأت بآدم وختمت بمحمد.

ج- أوحي بالإسلام إلى محمد، ليكون دين الناس كافّة، فلا مبرّر، إذن، لليهود والنصارى أن يظلّوا متشبّثين بدياناتهم السابقة، التي جاء الإسلام ليبيّن تحريفها وفساد معتقداتها، وقد أشار القرآن إلى انحرافها في عديدٍ من المواضع[70].

إن الأديان السماوية السابقة للإسلام، إن دعا القرآن إلى الاعتراف بها، والإيمان بجميع أنبيائها؛ فإنّها أضحت دارسة مبدّلة، لكنّها كانت في أصلها لا تختلف عن الإسلام، فلمّا اندثرت، جاء الإسلام لإحيائها

69 انظر كذلك: الزمر (39): الآية 1- 2، غافر (40): الآية 1، فصّلت (41): الآية 1، الدخان (44): الآية 1- 2، الجاثية (45): الآية 2، الأحقاف (46): الآية 2، النجم (53): الآية من 1 إلى 5

70 انظر: النساء (4): الآية 46، المائدة (5): الآية 13

وإرجاع الألق إليها، فذكّر بها وبما جاء فيها من أصول صحيحة؛ فهو لا يختلف في مضمونه عن جوهرها، لكنّها لمّا خضعت للتبديل، جاء الإسلام ليصحّحها، ويصوّب المعتقدات المحرّفة فيها[71].

طعون المستشرقين في القرآن:

لكن اليهود والمسيحيين المعاصرين، لم يرضوا بما جاء به الإسلام، فذهب البعض إلى القول: إنّ ما جاء به هذا الدين، ما هو في الحقيقة إلّا نقل مشوّه أو محرّف للديانتين اليهودية والمسيحية، اقتبس في الكثير من آياته من الكتب اليهودية والمسيحية القانونية وغير القانونية؛ فهنري ميشو(Henri Michaud)، يرى: أنّ ما قصّه القرآن حول المسيح؛ إنّما هو مستمدّ إمّا من الأناجيل القانوني، وإمّا من الأناجيل غير القانونية[72]، ويتساءل ميشو قائلًا: هل الإنجيل الذي يتكلّم عنه القرآن هو **العهد الجديد** الذي يؤمن به المسيحيون؟ ثمّ يجيب الباحث بالنفي[73]، ويضيف قائلًا: "لقد أفرغ القرآن الصفات الأكثر نبلًا التي يتحلّى بها يسوع في التقليد المسيحي، فلم يبق غير رسول مبعوث ولد إثر حبل بتولي، لكنّه دائمًا مخلوق، وقد عوّض القرآن المسيح (كلمة الله) بمبعوث مخلوق"[74].

إنّ التهمة بتحريف الأديان السابقة موجّهة إلى الإسلام، بسبب نقله، غير الأمين، لمضامين تلك الديانات، أو بسبب اعتماد محمد على مصادر يهودية ومسيحية غير قانونية؛ لذلك يذهب هنري ميشو إلى القول: إنّ القرآن بثّ خطأين جوهريين حول التثليث المسيحي؛ أوّلهما: يتمثّل في اعتبار التثليث ثالوثًا (Trinité/Triade). وثانيهما: يضع مريم الأقنوم الثالث في الثالوث. وقد استند الباحث إلى ما جاء في الآيتين الآتيتين: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} [المائدة (5): 73]، و{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ} [المائدة (5): 116]، ويذهب المؤلّف إلى القول: إنّ محمدًا قد أخذ المسيحية من تعاليم محرّفة[75]. ويمكن أن نفهم عمق الخلاف بين المسيحية والإسلام، من خلال المقارنة الآتية:

---

71 انظر: محمد الطالبي، Réflexion sur le Coran pp 29-30

72 انظر: Henri Michaud, Jésus selon le Coran, éd.Delachaux et Niestlé Neuchatel.Suisse 1960 p33.

73 انظر: المرجع السابق، ص 33

74 انظر: المرجع نفسه، ص 53

75 انظر: المرجع نفسه، ص 83

المسيح في المسيحية

- ابن الله/الأقنوم الثاني.
- مستقلّ في تصرّفاته ومعجزاته عن الآب.
- مات مصلوبًا.
- قام في اليوم الثالث بعد الصلب.
- صعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب.
- كلمة الله/الوحي.

المسيح في الإسلام

- هو ابن مريم/بشر.
- عبد رسول خاضع في تصرّفاته ومعجزاته للإله.
- نجا ولم يمت مصلوبًا.
- مات موتًا طبيعيًّا، ولم يقم ليتجلّى لأصحابه، مثلما هو مذكور في الأناجيل، وقيامته ستكون مع سائر الناس (القيامة العامة/البعث).
- لم يصعد إلى السماء؛ وإنّما دفن في الأرض شأنه شأن سائر الناس والأنبياء.
- ليس كلام الله/الوحي؛ لأنّ القرآن هو كلام الله، وهو يحتلّ ما يحتلّه المسيح عند المسيحيين. إنّ هذه النقطة الأخيرة تحيلنا، ضرورةً، إلى اختلاف اليهود والمسيحيين والمسلمين في تصوّرهم للوحي/ كلام الله.

كلام الله/الوحي

- في اليهودية: التوراة مخلوقة ومملاة، بلّغها موسى والأنبياء.
- في المسيحية: يسوع الكلمة المتجسّد، والكتاب المقدس هو إلهام، وهو مبلّغ الكلام الإلهي.
- في الإسلام: القرآن، وهو مخلوق ومملى، وهو المبلّغ (المعتزلة).
- وهو قديم غير مخلوق، وهو مملى، ومحمد هو المبلّغ (السنّة).

ومن الغربيين المسيحيين، من يرى أنّ القرآن، إن أمكن اعتباره كلامًا إلهيًا، واصل تساؤله، للضميرين اليهودي والمسيحي، ضدّ كلّ محاولة عبادة مخالفة للتوحيد الدقيق، فإنّه لا يمكن أن يكون مقبولًا كذلك؛ أي باعتباره كلامًا إلهيًا، إلّا بمقدار ما لا يتناقض شكليًا مع الوحي النهائيّ في المسيح، وبمقدار تحيينه الدين البدائي لإسرائيل[76]، وبذلك، نتحوّل من الإسلام باعتباره الدين الصحيح الذي به تقاس صحّة الديانتين السابقتين، إلى الدينين السابقين، باعتبارهما المقياس الذي به تقاس صحّة الإسلام.

ويقول القس جورج طرطار (Georges Tartar): إنّ المسلمين لم يحسنوا تفسير النصوص القرآنية المتعلّقة بالمسيح، وأنّ القرآن جاء ليثبت الكتاب المقدس، وهو لا يقول كلّ شيء عن المسيح؛ لذلك لا بدّ من إكمال هذا النقص، بما جاء في الإنجيل، وأنّ القرآن كان قد اقتبس من الكتاب المقدس، وأنّه ينتمي إلى المخزون الثقافي الديني والروحي للبشرية[77]؛ لذلك نرى سعي بعض المفكرين المسيحيين إلى دعوة المسلمين، لكي يعيدوا النظر في مفهومهم للوحي؛ فلا ينظروا بعد ذلك إلى القرآن باعتباره كلامًا إلهيًا؛ وإنّما باعتباره كلامًا ملهمًا (Parole inspirée) قام فيه محمد بدور نشيط[78].

إنّ ما تريد الدراسات الغربية تأكيده؛ هو أنّ القرآن نتاج اجتماعيّ ثقافيّ، أنتجه محمد، الذي يعدّ عند بعض الغربيين، دجّالًا ومخادعًا ومحتالًا[79]، ويمكن أن يفسّر **القرآن** بعديد العناصر التي أثّرت فيه؛ كاليهودية، والمسيحية، وخاصة المؤثّرات الشرقية[80].

إنّ هذا التمشّي في النظر إلى **القرآن** بهذه الكيفية، يمكن أن نجد له عديدًا من الأمثلة؛ ككتاب أ. قيقر (A.Geiger): الذي يحمل عنوان (**ماذا استعار محمد من اليهودية؟**) وهو كتاب دوّن بالألمانية في الأصل. وكتاب تيودور نولدكه (Theodore Noldeke) وهو بالألمانية، أيضًا، ويحمل عنوان (**تاريخ القرآن**) ظهر سنة 1860م. ونذكر كذلك، كتاب سيدرسكي (Sidersky): الذي يحمل عنوان (**أصل الأساطير الإسلامية في القرآن وفي قصص الأنبياء**) الصادر في باريس سنة 1933م. والقائمة تطول إن نحن سعينا إلى تقديم إثبات من الكتب الغربية، التي نظرت إلى القرآن بمثل هذه النظرة، واعتبرته شكلًا من أشكال اليهودية والمسيحية، نقله محمد عنهما من أسفارهما القانونية وغير القانونية[81].

---

76 انظر: Réflexion sur le Coran p34، وما بعدها؛ حيث يواصل الطالبي عرض مواقف الغرب من الإسلام.

77 انظر: المرجع السابق، ص 36

78 انظر: المرجع السابق، ص 37

79 انظر: المرجع السابق، ص 37

80 انظر: المرجع السابق، ص 38

81 انظر: المرجع السابق، من ص 32 إلى 42

وقد رأى نولدكه: «أنّ القرآن ملآن بالأخطاء، وأنّ من الصعب على القارئ أن لا يلاحظ التغييرات التي أدخلت على قصص **العهد القديم** في **القرآن**، ولا يتفطّن إلى الأخطاء التي امتلأ بها النص المقدّس الإسلامي». إنّها المقولة نفسها التي تتكرّر، والتي تردّد: أنّ محمدًا كان قد سرق من النصوص المقدّسة القديمة، لكنّه لم يحسن السرقة من تلك النصوص؛ إذ إنه بدّلها أو حرّفها[82].

إن المفكّر الغربيّ، ما إن يبدأ في دراسة القرآن، حتّى يظلّ وفيًا لتراثه الديني قبل كلّ شيء، ولن يكون مخالفًا لهذا التمشّي؛ لأنّ طبيعة الموضوع تلزم بعمق الباحث[83]، ولأنّ قوله بكون القرآن كلامًا إلهيًا موحَى إلى محمد، يخرج به من دائرة إيمانية إلى دائرة إيمانية أخرى، قد تكون مختلفة عن الإيمان الذي وطّد نفسه عليه. صحيح أنّ الإسلام يقرّ بضرورة الإيمان بالكتب السماوية السابقة وبأنبيائها، ويدعو المسلمين إلى ذلك بإلحاح، لكن هذا الأمر غير متوفّر في الديانتين السابقتين، وقد تكون المسألة تاريخية؛ بسبب أسبقية اليهودية والمسيحية، وإن ألحّت النصوص الإسلامية الحافّة بالقرآن على القول بوجود إشارة إلى نبوّة محمد في الإنجيل، وهذه الإشارة ينفي وجودها الباحثون الغربيون، ولا تتوفّر عليها النصوص المقدسة المسيحية، وإن قال المسلمون: إن اليهود والنصارى قد حذفوها من أسفارهم المقدّسة، لكنّ المهمّ هنا، هو أنّ الإسلام ليس في حاجة إلى حجّة نصّية سابقة حتّى يثبت وجوده.

د- إنّ جلّ النقد الذي وجّهه الغرب إلى الإسلام، وإلى نصّه المقدّس، وإلى نبيّه، يمكن أن نجد له صدى في ما وجّهه معاصروا محمد إلى الإسلام، وإلى دينه، وإلى رسوله، وقد تبيّن لنا سابقًا، أنّ معاصري محمد، أو عددًا منهم، قد رأوا في القرآن كلاما بشريًا بثّه ساحر، أو كاهن، أو شاعر، أو مجنون، وهو كلام كذب وافتراء، فمحمد، إذن، رجل كاذب أو مخادع، جاء في الآية: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[84].

إنّ الهوّة تظلّ عميقة بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، لكن ينبغي أن نعترف أنّ الإسلام، وإن جاء في تواصل مع الديانتين السابقتين، وهو ما جعل اليهود والمسيحيين يرون في القرآن مجرّد اقتباس من الكتاب المقدّس؛ فإنّ أصالته تتجلّى في العديد من المسائل، وخاصّة تلك التي تتعلّق بتصوّر الإله وتصوّر النبوّة/النبيّ.

إنّ النبيّ في **القرآن**، ليس هو النبيّ في **العهد القديم**، ولا هو النبيّ في **العهد الجديد**، وإن تحدّث **القرآن** عن النبيّ نفسه الذي سبق للكتب المقدّسة أن تحدّثت عنه، فقد تبيّنت لنا صورة النبيّ في **التوراة**، بصفة خاصّة، وفي **العهد القديم** بصفة عامّة مثلما تبيّنت لنا الصورة التي رسمتها الأناجيل القانونية ليسوع.

---

82 انظر: المرجع السابق، ص ص 40- 41

83 انظر: المرجع السابق، ص 41

84 الفرقان (25): الآية 4- 5

إنّ النبيّ في **القرآن** يتبوّأ مكانة تنأى به عن منزلة الناس العاديين، لكنّها تتدنّى به دون مرتبة الإله، إنّها تنزّهه عن ارتكاب الفواحش؛ كالزنى، والخمر، والتدنّي الأخلاقي، لكنّها تقف به دون أن يطال مرتبة الألوهية، وكأنّنا به يحتلّ منزلة بين البشرية والألوهية، وإنّنا نلفي ذلك من خلال تحليل نظرة القرآن لأنبياء بني إسرائيل وللمسيح، فنحن نلاحظ أنّ النصّ الإسلاميّ المقدّس قد ارتفع بأنبياء **العهد القديم** إلى منزلة تبوّئهم مكانة فوق المنزلة التي كانوا يحتلّونها في **الكتاب المقدّس/العهد القديم**.

إنّ القرآن يعمد إلى حذف ما يتنافى وتصوّره للنّبوّة، فلا يذكر، مثلًا؛ جدل إبراهيم مع الإله حول مسألة سدوم وعمورة (قوم لوط)، ولا يذكر كيف عمدت ابنتا لوط إلى مضاجعة أبيهما بعد أن سقتاه خمرًا، ولا يتعرّض إلى الحديث عن تلكّؤ موسى عندما بعثه الإله إلى بني إسرائيل ليخرجهم من مصر.

لكنّ هذه المنزلة التي تنأى بالنبيّ عن البشر العاديين، لا تصل به إلى أن يطال بعض الصفات الإلهية، نفهم ذلك من خلال موقف **القرآن** من المسيح؛ فقد سعى هذا النصّ إلى أن ينزع عن عيسى جميع الصفات التي تربطه بالإله، والتي توفّرت عليها الأناجيل، فعيسى في **القرآن** نبيّ رسول، حسب التصوّر الإسلامي للنبوّة، إنّه نبيّ ينتمي إلى البشر، وهو ابن مريم وليس ابن الله، يأكل ويشرب ويتغوّط ويموت ويفنى، شأنه شأن جميع بني آدم، نقرأ في [المائدة (5): 75]: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}، ولكنّ هذا الكائن الفاني يتجاوز الناس العاديين بدرجات، عندما ينأى عن جميع الأفعال الدنيئة بالتطهّر والعفّة والأخلاق الرفيعة، لكنّ هذا المقدار الذي يتجاوز به المنزلة العادية، لا يسوّغ له أن يشارك الإله في بعض صفاته.

إنّ المفارقة بين النبيّ والإله في الإسلام تظلّ قائمة وجليّة، ولا مجال للتقريب بينهما أو بين الحدثين الفاصلين؛ فالإله لا يقبل حتّى المقارنة بينه وبين الكائنات المخلوقة بما في ذلك الأنبياء، حسب الآية: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[85].

إنّ النبيّ كائن مخلوق فانٍ، يخضع لما يخضع له الظرف مكانًا وزمانًا؛ لذلك كان: {مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[86]، والنبيّ في القرآن يظلّ في انسجام تامّ أو انصهار أو فناء في الذات الإلهية؛ فهو لا يعاند الإله، ولا يناقشه في ما اتخذه من قرارات، ولا يرفض الأوامر التي يتوجّه بها إليه، وهو خاضع تمام الخضوع، وتابع تمام التبعية للإرادة الإلهية؛ فهو يستمدّ نفوذه وقوّته من الذات المتعالية، ولا يمكن له أن ينهض إن هي لم تساعده على القيام؛ لذلك تكون جميع المعجزات والعجائب التي يجترحها، إنّما هي بمساعدة الإله وبإذن منه، وقد ركّز **القرآن** على هذه التبعية عندما أشار إلى أنّ جميع

85 الشورى (53): الآية 11

86 آل عمران (3): الآية 59

العجائب التي أتاها المسيح كانت بإذن الله، ولا دور له فيها إلّا باعتباره أداة أو واسطة به تنفّذ المشيئة الإلهية؛ لذلك يكون من الخطأ عند النبيّ أن يؤمن باستقلال ذاته عن ذات الإله.

النبوّة/العبودية/الاستسلام:

ويمكننا أن نفهم هذه العلاقة القائمة على الخضوع والتبعية بين الإله والنبيّ، من خلال تفسير لفظتين وردتا في **القرآن**، وقد نعت بهما الأنبياء، وهاتين اللفظتين هما؛ (عبد) و(مسلم)، فاللفظة الأولى: استعملت لتدلّ على العلاقة القائمة بين الذات الإلهية والنبيّ:

- عيسى: [مريم (19): 30]: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}.

[النساء (4): 172]: {لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ}.

- نوح: [الإسراء (17): 3]: {... مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[87].

- داود: [ص (38): 17]: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ}.

- أيوب: [ص (38): 41]: {واذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ}.

- زكريا: [مريم (19): 2]: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا}.

- لوط: [مريم (19): 10]: {كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا}.

- إبراهيم وإسحاق ويعقوب: [ص (38): 45]: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}.

- محمد: [الإسراء (17): 1]: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا}[88].

إنّ العبد، حسب ما جاء في لسان العرب، هو: "الإنسان حرّا كان أو عبدًا، يذهب بذلك إلى أنّه مربوب لباريه". وهو، حسب المعجم نفسه: "فلان عبد بيّن العبودة والعبودية والعبدية، وأصل العبودية الخضوع والتذلّل"[89]. إنّ علاقة النبيّ بالإله هي علاقة العابد بالمعبود، والعابد، هنا، هو: الذي يأتمر بأوامر معبوده، فيطيعه، وينتهي عمّا ينهى عنه، ويقوم بواجباته إزاءه، ولا يرفض ما يطالبه به، ولا يجادله فيه.

87 انظر كذلك: القمر (54): الآية 9، والتحريم (66): الآية 10

88 انظر كذلك: الأنفال (8): الآية 41، والكهف (18): الآية 1، والفرقان (25): الآية 1

89 انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: عبد.

أمّا لفظة (مسلم)؛ فتردّدت في عديد المواضع من القرآن، لتدلّ على من اتّخذ الإسلام دينًا، وجميع الأنبياء في **القرآن** مسلمون، ورد في [آل عمران (3): 67]: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}. ونقرأ في [سورة يوسف (12): 101]: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}. وجاء في [المائدة (5): 111]: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُواْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}.

ويعرّف الإسلام في **لسان العرب** على النحو الآتي: "الإسلام والاستسلام: الانقياد. والإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبيّ". إنّنا نجد في (الإسلام) معنى؛ الاستسلام لله، والخضوع له، والقيام بشرائعه، وهو المعنى نفسه الذي ألفيناه في لفظة (عبد)؛ لذلك يكون النبيّ في الدين الإسلامي (العبد المسلم)؛ بمعنى الخاضع والمستسلم للذات الإلهية، والواصل بين الإله والنبيّ عبادة الثاني للأوّل بما جاء به الإسلام.

القرآن وصورة النبيّ النموذج:

إنّ الإسلام قدّم تصوّرًا جديدًا للنبوّة، قلّما نجد أمثلة له في أسفار **العهد القديم**[90]، وقد أضفى **القرآن** على النبوّة الألق، ونفى عن النبيّ ما تلبّس به من صور المروق والعصيان وارتكاب الفواحش، وأرجعه إلى حجمه الحقيقي؛ فالمسيح في **القرآن**، هو:

- عيسى بن مريم، وليس ابن الله، وفي هذا التحوير تأكيد لبشريته، ونفي للبنوّة الإلهية التي ركّزت عليها النصوص الإنجيلية.

- هو عبد ونبيّ مرسل يخضع لكلّ ما يخضع له كلّ كائن بشريّ مظروف ومحكوم عليه بالفناء في النهاية، فتنتفي عنه الألوهية، أو كونه الإله المتجسّد، أو الأقنوم الثاني في الثالوث المكوّن للألوهية، وهو إن أتى بمعجزات فبإذن من ربّه، ولم يكن ذلك بإرادته الذاتية.

- لم يقتل، ولم يصلب، ولم يصعد إلى السماء ليجلس عن يمين الآب؛ وإنّما نجا من القتل والصلب، وفي ذلك تكريم له، وشدّ من أزر النبيّ محمد، ودحض للمقولات الكبرى في المسيحية كالفداء والغفران، ولكن ألا نلاحظ ضربًا من "الأسطرة" للمسيح عندما تدخّل العجيب لإنجائه من القتل؟

- لم يقم بعد ثلاثة أيام من دفنه، وفي ذلك، رفض لعقيدة القيامة في مفهومها المسيحي، وما تحمله من دلالات.

---

90 انظر: سفر دانيال 9، وقد ربط مدوّنه النبيّ بالعبد في موضعين على الأقلّ.

إنّ موسى وعيسى (وغيرهما من الأنبياء)، هما في **القرآن** نبيّان مسلمان، والقرآن لا يرسم الأنبياء طبقًا للصورة التي رسمتها لهم الديانات السابقة؛ وإنّما هي صورة قرآنية إسلامية، إنّه النبيّ (المؤسلم)، نبيّ القرآن أو نبيّ الإسلام، وهؤلاء الأنبياء لا يُرْضُونَ المؤمنين بهم في ديانتهم الأصلية (اليهودية- المسيحية)؛ وإنّما يُرْضُونَ المسلمين، وإن كان **القرآن** قد أضفى عليهم الاحترام والتقدير.

إنّ **القرآن** لا يقدّم صورًا مختلفة للأنبياء، مثلما نلفي ذلك في **الكتاب المقدّس**؛ حيث لكل نبيّ ما يتفرّد به في الطبيعة، وفي السلوك، وفي علاقته بالإله؛ وإنّما يقدّم النبيّ النموذج أو المثال، أو هو يقدّم صورة النبيّ الكامل منذ آدم أبي الأنبياء إلى محمد خاتمهم، وجميع هؤلاء تجمع بينهم قواسم مشتركة عديدة، وإن تباينوا في الزمان، والمكان، ونوع المعجزة الدالّة على نبوّتهم؛ فالنبيّ عبد مسلم مبعوث برسالة إنذار لقوم معيّنين، والرسالة التي بعث لتبليغها تتّفق ورسالات الأنبياء السابقين.

إنّ هذا التصوّر للنبوّة، يعزى إلى قول **القرآن** بالتواصل في الوحي من آدم إلى محمد[91]. والوحي في المفهوم الإسلامي؛ مراحل متلاحقة متكاملة منذ بدئه حتّى ختمه. وكلّ نبيّ لاحق يأتي ليحيي الوحي السابق، بعد أن درس وتبدّل بسبب الانقطاع، أو التحريف، أو التبديل، حسب العبارات التي يستعملها **القرآن**. والأنبياء في **القرآن** يتكاملون ولا يتقاطعون، ويتواشجون ولا يتنافرون، ولا يمكنهم إلّا أن يكونوا كذلك؛ لأنّ مصدر الوحي واحد، وإذا ما وجد في الدين الذي أوحي إلى أحدهم عناصر تبدو غريبة، فذلك ليس من فعل النبيّ؛ وإنّما من التحريف والتبديل الذي ألحقه قوم النبيّ بالدين، فشانوه به.

إنّ ما جاء به عيسى، لا يمكن أن ينقض ما جاء به موسى، وما جاء به محمد لا يمكن أن يتنافر وما أوحي إلى موسى وعيسى؛ فالمحمول (الوحي) واحد، وإن تعدّد الحامل (النبيّ)، والوحي الجديد ما هو في الحقيقة إلّا عملية إحيائية لوحي درس أو حرّف، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة لتدعم هذا المعنى نذكر منها ما يلي:

- {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[92]

- {فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ}[93].

---

91 Voir Henri Michaud, Jésus selon le Coran pp90- 91.

92 الصف (61): الآية 6

93 المائدة (5): الآية 42- 43

- {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ}[94].

إنّ الشواهد السابقة تؤكّد ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين: «أنّ القرآن ليس قطيعة؛ بل هو تواصل؛ فهو في تواصل مع ضروب الوحي السابقة، يعمّقها، ويؤصّلها، ويصحّح تحريفها، ويكمّلها، جاء في الآية: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة (5): 48][95]، **فالقرآن** يمثّل، إذن، الاكتمال النهائيّ للوحي.

إنّنا نلفي تصوّرًا عامًّا للنبوّة، وهذا التصوّر يمكن أن يكون إطارًا يدرج فيه جميع الأنبياء، على اختلاف أزمانهم، وأقوامهم، وبيئاتهم، وسيرهم الذاتية؛ ذلك أنّ الإسلام سعى إلى أن ينشئ صورة للنبيّ، تكون صالحة لجميع الأنبياء، فكأنّ هؤلاء جميعًا نبيّ واحد، وإن اختلفت الأسماء؛ لأنّ القواسم المشتركة بين هؤلاء كثيرة جدًّا.

أمّا في **العهد القديم**؛ فنجد تصوّرات مختلفة ومتباينة حول الأنبياء؛ إذ إن لكل واحد منهم سيرته الذاتية وأخلاقه وطبيعته، ولكلّ واحد ما يتميّز به، وقد يجد الدارس تناقضًا بين الواحد منهم والآخر، وكأنّ لا رابط يصل اللاحق بالسابق، وأمّا في الإسلام؛ فإنّ للأنبياء جميعًا قواسم مشتركة وصفات ثابتة، تصل الواحد منهم بالآخر.

إنّ **القرآن** لا يصف النبيّ في حالاته المختلفة التي يمكن أن يمرّ بها؛ وإنّما يرسم صورة للنّبيّ النموذج أو الكامل، لذلك يمكننا أن نتساءل: ما الفرق، مثلًا، بين صالح وهود أو بين داود وسليمان؟

إنّ أنبياء **الكتاب المقدس** يبدون في **القرآن** على أنّهم أنبياء، صيغوا حسب التصوّر الإسلامي للنبوّة، فكأنّ **القرآن** أفرغهم من مضامينهم التي حمّلوها في نصوصهم الأصلية، ليقدّمهم، حسب التصوّر الإسلامي؛ لذلك يصبح هؤلاء الأنبياء مسلمين، وإن لم يدركوا الإسلام، بعدما كانوا يهودًا.

إنّ **القرآن** يذكر عددًا من قصص الأنبياء، لكن هذه القصص لا تذكر لغاية في ذاتها؛ وإنّما لتشرح وتوضّح رسالة نبيّ الإسلام: خيباته، ومقاومة دعوته[96]، إنّه نصّ أفرغ بعض الصفات، التي لا تسند عادة إلّا إلى يسوع، من معانيها ليقدّم لنا يسوعًا مخلوقًا محضًا[97]، ولكنّ هذا المخلوق المحض يمثّل الصورة النموذج للنبيّ في التصوّر الإسلامي.

94 المائدة (5): الآية 68. وانظر كذلك: التوبة (9): الآية 111، الأنبياء (21): الآية 25، النساء (4): الآية 163

95 Réflexion sur le Coran pp 29- 30.

96 Voir Henri Michaud, Jésus selon le Coran p 90.

97 Voir ibidem.

الخاتمة:

لقد تَبيَّن من خلال هذا البحث: أنّ النبوّة مسألة جوهرية وركن أساسي، في جلّ الأديان، إن لم نقل في جميعها، وقد جعل الدين الإسلامي الاعتراف بالأنبياء السابقين أحد أركان الإيمان فيه، وقد اضطلع كلّ نبيّ في رسالته بأدوار على غاية كبيرة من الأهميّة؛ فهو المبلّغ عن الله تعاليمه، والمتكلّم عوضًا عنه، والمفسّر لوحيه، والوسيط بينه وبين الناس، وهو الذي به يتجلّى في الوحي؛ لذلك يمكن القول: إنّ الآلهة تنتفي لولا وجود أنبياء أو أناس يفسحون لها مجال التجلّي، ويُضفون عليها صفة القداسة.

لكن رغم الأهمية التي حظيت بها مؤسسة النّبوّة؛ فإنّ الغموض والاختلاف في شأنها ظلّا يكتنفانها، والرؤى المتباينة تطالها، وتختلف باختلاف متقبّل النصوص المقدّسة الحاملة للوحي أو الكلام الإلهي، ورغم أنّ جميع الأنبياء يقولون: إنّهم ينهلون من مصدر إلهي واحد، هو؛ الذات الإلهية المتعالية أو الله؛ فإنّ الوحي الذي أوحي إليهم، أو الكلام الإلهي الذي بُلِّغوهُ لِيُبَلِّغوه إلى الناس، تَلَوَّن بشخصية كلّ نبيّ، وثقافته، وإكراهات العصر الذي عاش فيه؛ لذلك لم يكن موسى **القرآن** هو موسى **التوراة**، ولم يكن المسيح في **القرآن** هو المسيح في **العهد الجديد**، ولا الإله التوراتي هو الإله القرآني؛ لأنّ كلّ نبيّ صاغ تصوّرًا للإله وَفْقَ مزاجه، وثقافته، ومعطيات عصره، وعلى قدر مَلَكة التخييل لديه؛ فكانت صورة الإله قريبة جدًّا من صورة النبيّ؛ بل إنّ النبيّ صار ندًّا للإله في الكثير من أسفار **العهد القديم**، وأبرزت المسيحية يسوع في صورة كان فيها أعظم من نبيّ؛ إذ جمع في شخصيته اللاّهوت والناسوت، ولكنّ هذه الصورة التي رسمتها المؤسسة الدينية للإله وللأنبياء في **الكتاب المقدّس**، ستعرف تغيّرًا في **القرآن**؛ إذ سينزّه القرآن الأنبياءَ من ارتكاب الفواحش، وسيسعى إلى الارتفاع بالإله إلى مرتبة أكثر تجريدًا.

وقد كشف لنا البحث: أنّ الأنبياء لم يكونوا متقبّلين مُلهَمين الوحي من السماء فقط؛ بل هم يُسهمون في إنشائه، ويعبّرون عنه بلغة وعبارة بشريتين محمّلتين أمثالًا ورموزًا، واستعارات، وأساطير، ومُشبَعين خيالًا، وهو ما جعل النصوص المقدّسة قابلة لتعدّد القراءات، منفتحة على المطلق من المعاني، محيلة على وفرة الدلالة.

وقد أكّد باروخ سبينوزا على الحضور المكثّف للخيال لدى الأنبياء، مقابل ضموره لدى الفلاسفة، ولمّا كان خيال الأنبياء يتأثّر بالبيئة التي عاش فيها كلّ واحد منهم، كانت تنبّؤاتهم والصّور التي تخيّلوها للكائنات وللقوى الغيبية متباينة، وكان الوحي نفسه الذي يعتقد أنّه آتٍ من المصدر عينه، يختلف من دين إلى آخر، ومن نبوّة إلى أخرى في المفاهيم والمضامين. ومن هذا المنطلق، يكون الخطاب المباشر بين الآلهة والأنبياء من باب التخييل، وتكون التمثّلات المجسّدة للقوى الماورائية، لا تخرج عن هذا الباب، وإن أصرّت المؤسسة الدينية على وجود الحقيقة المطلقة في النصوص المقدّسة، وعلى صدور الوحي من الذات الإلهية المتعالية دون سواها.

المصادر والمراجع:

1) العربية والمعرّبة:

- نصر حامد **أبو زيد**، مفهوم النصّ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، 1988م.
- **التهانوي**، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1، 1996م.
- باروخ **سبينوزا**، رسالة في اللاّهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي وتقديمه، القاهرة، 1971م.
- سيغموند **فرويد**، موسى والتوحيد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط 4، 1986م.
- **قاموس** الكتاب المقدّس، نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاّهوتيين، القاهرة، 1990م.
- **القرآن** الكريم، رواية حفص.
- الكتاب المقدّس، كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية، ط 4، 1988م.
- حمادي **المسعودي**، متخيّل النصوص المقدّسة في التراث العربي الإسلامي، دار المعرفة للنشر، تونس، 2007م.
- أحمد **المشرقي**، النّبوّة في الأديان الكتابية، المركز القومي البيداغوجي، تونس، ط1، 1999م.
- **الملتقى** الإسلامي المسيحي الثاني، معاني الوحي والتنزيل ومستوياتهما، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1980م.
- ابن **منظور**، لسان العرب، دار الجيل- بيروت، دار لسان العرب- بيروت، 1988م.
- عصام الدين حفني **ناصف**، المسيح في مفهوم معاصر، دار الطليعة- بيروت، ط 1، 1979م.

2) الأجنبيّة:

- Léo Braeck, L’essence du Judaïsme, P.U.F. 1993.
- Henri Michaud, Jésus selon le Coran. Ed. Delachaux et Niestlé. Suisse 1960.
- Paul Poupard, Dictionnaire des religions. P.U.F. 1984.
- Mohamed Talbi, Maurice Bucaille, Réflexions sur le Coran. Ed. Seghers, Paris1989.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017